الطبعة الرابعة

نبتة الرصيف

وجدان حسين و وئام حسين

رواية

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَــاد، الإلكترونية. ©

تمَ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.

تأكد من أنك تقرأ هذه الرواية من قناة ضــاد الرسمية على تطبيق تيليجرام:

تمَ تجهيز هذا الكتاب الالكتروني
بـواسـطـة:

مكتبة ضاد
t.me/twinkling4

لجميع الكتب، المجانية والمدفوعة،
وكل ما تشتهيه قريحتك الثقافية.

الإهداء

إلى الذين يحملون انتماءً تجاه الأشياء التي تُشعرهم دائمًا بالغُربة.

«لا أعرف من أنا

ولا أين ولدتُ.

أجهل من أين أنا

أو إلى أيّ جحيم أتجه.

أنا قطعة من شجرة ساقطة

أجهل أين سقطتْ.

أين جذوري؟

على أي نوع من الأشجار نَمَوْت؟»

إدواردو غاليانو

أغنية شعبية من بوياكا، كولومبيا

عزيزي القارئ، مرحبًا..

ما الذي دفعك لقراءة هذا الكتاب؟ على الأرجح أنه الملل، أو ربّما لم تجد أحدًا لتحادثه على الهاتف، هل تريد التقاط صورٍ له مع كوب قهوة؟ ماذا عن الفضول؟ هل دفعك لتخطّي الصفحات والوصول إلى الصفحة الأخيرة؟ لا بد وأن إعلانًا وقعت عينك عليه عن طريق القصد أو المصادفة حملك إلى هنا، حيثُ هذه الصفحة التي يسمّونها «مقدّمة» بالمناسبة هذا هراء، لا أحد يمهّد مشاعره ليقدّمها، هل حدث وخطّطت قبل إجهاشك بالبكاء؟ ماذا عن ضحكاتك؟ أعني الصادقة منها، هل أعددتَ لها؟ إن كانت جميع الإجابات «لا» فهذا يعني أن هناك فرصةً لا بأس بها لإكمال القراءة.

ما رأيك أن نعقد اتفاقًا إذًا، يُقال إن لكل كلمةٍ صوتًا، أعتقد أنك تخمّن صوتي الآن، إذًا إليك الاتفاق، فلتنطق هذه الكلمات بصوتك، شريطة أن تسمعها بصوت من تحب، تخيّله وهو يلقيها عليك، هل فعلت؟ هذا جيّد.

لم تجد شخصًا تحبه؟ مؤسف، لقد نطقت الكلمات وسمعتها بصوتك، ممتاز، أنت مخوّلٌ الآن تمامًا لقراءة هذا الكتاب.

لقد عبرتَ الآن عدّة مراحل، الأولى لا بأس بها، والثانية جيّدة، أما الثالثة فممتازة، أنت تحرز تقدّمًا ملحوظًا وهذا هراء آخر، لقد انطلت عليك الكذبة، فلا وجود لمقاييس في القراءة، إن كنتَ نطقتَ الكلمات فعلًا، فهذا يعني أن عقلك ترجمها لصوتٍ قبل أن أخبرك باتّفاقي، هذا يعني أن الصوت الأول هو الحقيقة، أما الباقي فتزييف.

أنت لم تتحسّن، لكنّك واصلت القراءة إلى هذا السطر، وإن كنتَ فعلت ذلك بالفعل، فهذا أمرٌ مدهش.

في الواقع ليس هناك طريقة لكتابة جرح ينزف دون أن تبتل يد القارئ بدماء جريمة لم يقترفها، هكذا يمكنني أن أصف الأمر ببساطة، فبعد الألم الذي مضيت من خلاله بإرادتي في أحيان وفي أخرى دونها، لا أزال أفكر في مدى عمق الجرح الذي من الممكن أن نتسبب به نحن للورقة!

لم أكتب فيما سبق بهذا الشكل العشوائي، على الرغم من أن حياتي عبارة عن عشوائية لا يمكن ترتيبها لكنني أوثر التنظيم خصوصًا فيما يتعلق بالكتابة.

اسمي زهراء، وأمقت حين يصرون على مناداتي «زهرة»، يقولون إنه في الصباح الذي أنجبتني به أمي اضطروا لخلع أحد أسنانها، خرجت أمي من غرفة الولادة مباشرة إلى عيادة الأسنان.

تقول والدتي بأن المرأة حين تلد فإن ضوءًا يخرج بين فخذيها إن كان الطفل صالحًا، لا أعلم من أين جاءت بهذه الفكرة لكنني على يقين بأن الضوء الوحيد الذي شاهدته أمي في ذلك اليوم هو الذي يستخدمه الطبيب لمعاينة أسنان المريض.

أحب أن أكتب عن أحداث لا معنى لها كي أهرب من الوصول إلى حقيقة ما أعيشه، لهذا لا أنسى أبدًا حين لعبت مرة مع ابنة عمي «نورة» التي ولتعاسة حظها كانت تمتلك أبًا يعاملها هي ووالدتها بطريقة فظيعة، كانت تمسك الدمية والتي تطلق

عليها اسم «بنتنا» بحنان بالغ وكأنها ولدت لتكون أمًّا، أما أنا وبسبب تسلقي الأشجار وشجاري المتواصل مع أبناء الحي فكنت حتمًا الأب.

حاولتُ مرة ضرب «بنتنا»، لكن نورة صدتني عن فعل ذلك، عَللتُ فعلتي بأن كل الآباء يتصرفون بهذا الشكل، فردت علي: «ليس على الخيال أن يصبح نسخة من الواقع»، اليوم أدرك فلسفة نورة في كل ما كتبتُه، أتمنى لو كان لي متسع كبير من الخيال أوزعه على كل الأطفال العالقين في مرارة الواقع.

الآن وقد كتبت آلامي على مرأى من الجميع دون إحراق الورقة ودون أن أضيف لها بريق الخيال السعيد، أعلم في أعماقي أنني خذلت حياة الأب الذي عاش مع «بنته» سعيدًا، وعدت مجددًا لكي أصبح طفلة تبكي على أرضية السوبر ماركت لأن والدتها رفضت شراء المزيد من السكاكر لها!

(1)

الخوف لا يقوم بتعريتك من نفسك وحسب، إنه يُفقدك القدرة على ارتدائها مرة أخرى.

استيقظتُ وأنا أسمع طرق الباب في الأسفل، صوتٌ أجشّ يشق صداه حدود سمعي، "زهرا زهرا" أفركُ عينيّ ببطء، الطّرقَاتُ تزداد بينما ديك جارنا العجوز لا ينفكّ عن الصراخ وإثارة الفوضى.

بتثاقلٍ أجرُّ قدميّ، أرفع شعري الأحمر دون أن أمرر أسنان المشط عليه، ثم أغرز مشبكًا بداخله، أصل إلى عتبة الباب وأفتحه، ها هو ذَا والدي عاد باكرًا، وقلّما يعود في هذا الوقت إلا إذا غلبه الجوع أو بخس السوق حق منسوجاته.

يتكئ على الكنبة المجاورة، أخلع نعليه برفقٍ وابتداءً من كعبهِ المتيبّس أسحب جواربه.

يغطّ سريعًا في النوم، ورأسهُ المغزو بالشيب يسقط برفقٍ على الوسادة الجانبية.

أتأمل فاهه المفتوح، فتولدُ بداخلي أسئلةٌ وتقتلها الإجابات.

أتمتم في نفسي: "كيف لرجلٍ تبدو عليه ملامح الضياع أن يترك امرأةً كانت لتهديه كتفها عوضًا عن الوسادة؟"، أطرد الأسئلة من رأسي وأذهب إلى الغرفة.

على السرير الخشبي، أرمي جسدي، أتأمل شقوق السقف وأرسم في الهواء بأصابعي شاربين، أضع يدي على عيني

اليمنى وأفتح الأخرى، أتخيل أنني أقرّب الشق من الشق الآخر بأصابعي، على الأقل من وجهة نظري، أضع أحمر شفاهٍ للشق الثاني، وهكذا أصنع زوجين متكاملين، من الشقوق.

أبعد يدي عن عيني اليمنى وأضعها على الأخرى، ببلاهةٍ أمرر أصابعي بسرعةٍ في الهواء، وكأنني بذلك أمحو الزوج وشاربه الأحمق العريض، وأترك الشق الثاني وحيدًا بأحمر شفاهٍ لم تصطده القُبل.

بعد مرورِ ساعتين تقريبًا، يستيقظ والدي، كمَن غشي عليه سهوًا، يتأمّل المكان بعينين خاويتين، ثم يغسل وجهه.

زهرا، حضري لي كوبًا من الشاي وتعالي لنتحدث.

تخشّبت قدماي، لم يحدث وأن تحدث معي والدي قط حال استيقاظه، أعلمُ أنه يخصص هذا الوقت لقراءة الصحف وشرب الشاي، لا بد أن هناك خطبًا ما.

أحضرت الشاي في أكوابٍ بيضاء كروية الشكل، مزخرفةٍ عند الأطراف باللون الذهبي.

يتصاعدُ دخان الشاي من الكوب، حتى يغزو نظارته بالبخار، يمسح العدسة برفقٍ ثم يراقب تلاشي الشاي بلونه الأخضر في الماء الساخن، ثم يقول:

- تعلمين يا عزيزتي أنني أوشك على الاقتراب من الموت يومًا بعد يوم، يرتشف الشاي ثم يكمل: ولن يهدأ لي بالٌ إن لم أجد رجلًا يحافظ عليك من بعدي، اليوم ابن صديقي العزيز حدثني عن رغبته بالزواج منك.

تتسمّر قدماي ويندفع الأدرينالين في جسدي بشكلٍ حارق، أقول بتلعثم:

- لكنني لا أحتاج رجلًا من بعدك، سأعمل أعدك، سأقوم بأي شيء لكنني لا أريد الزواج.

نظر إليّ بنظرة مشبّعة بالبرود ثم قال:

- كوني على يقينٍ يا صغيرة، أنا هنا لا أنتظر رفضك أو قبولك للخبر، بل أُطلِعُك عليه وحسب، اذهبي الآن لغرفتك وحاولي تقليب الأمر بذهنك كيفما شئتِ فهو واقعٌ لا محالة.

يرفع الصحيفة ببلادةٍ حتى يحجب عينيه عن رؤية وجهي، ويقرأ.

(2)

ظللت طوال حياتي واقفة على أطراف أصابعي لحلول معجزة إلهية، حتى أدركت أن الحياة برمتها حبلُ مشنقة.

الديك يصدحُ بصوته من جديد هذا الصباح، غير أنه لم يقم بإيقاظي لأنني لم أنم منذ البارحة، كنتُ أحدّق في صورة والدتي أسفل سريري، فوالدي قد مزّق كل صورها المتبقية منذ سنوات.

أتصل بها لسبع مرات وفِي المرة الثامنة تجيب:

-كيف حال صغيرتي؟

فتهزم برقّة سؤالها ثباتي، تنتظرني على السماعة دون أن تنبس ببنت شفة، إن والدتي تجيد الصمت أثناء حديث الدموع، أخبرها عن مشهدٍ سيّئ كممثّلٍ خذلته كل حبكات المخرج، لكن حاجته للمال دفعته للإكمال.

عن أفكار الوالد في الزواج وعن رفضي للفكرة، عن الفراغ الذي يغتالني، عن المدارس التي ارتدتها لبرهةٍ من الزمن، عن باص المدرسة الذي توقّف عن اصطحابي عند الحادية عشرة من عمري، وعن كل الحنين الذي يدكّ صدري إليها.

تتنهد هي الأخرى، تصب في أذني الكثير من الكلمات التي تؤدي إلى "الزواج وحتمية وقوعه" وعن عجزها عن مساعدتي، أغلق الهاتف بصمتٍ وأذهب لغسل وجهي، أغسلهُ مرارًا، أصفعهُ بالماء، حتى تتناثر القطرات على بيجامتي،

أفرش أسناني، أرفع شعري كما العادة وأقصدُ بثقلٍ المطبخ.

أصبُّ الزيت على المقلاة، وأنا أراقب تقافز قطراته، أكسر البيضة برفقٍ، وأنا أتأمل من نافذة المطبخ كل النوافذ المغلقة على نساءٍ يقطنّ في بيوتٍ جدرانها تتهاوى، يطعمن أطفالهن، يضاجعن أزواجهن، كزوجاتٍ مطيعات وحسب، وأتساءل: كم يكلفهنّ العيش بهذه الرتابة؟

يقطع شرودي ارتطام والدي بكتفي وهو يفتح باب الثلاجة، تتسع عيناي وأراه يحدّق فيّ ثم يقول:

-لا بد وأنك تتساءلين عن سبب عودتي باكرًا، في الحقيقة أنا لم أذهب للعمل من الأصل، ظللتُ أنتظر استيقاظك لأؤكد لك أن الخطوبة ستكون يوم الجمعة القادم إن شاء الله.

يُخرج الحليب من الثلاجة ويصبّه، كل قطرةٍ رقيقةٍ هرعت إلى الكوب تحولت في أذني إلى صرخات.

يباغتنا الموتُ فجأة، نَحْنُ أبناء الحياة نموت فيها عدّة مراتٍ حتى نصل إلى الموت الحقيقي، وحين وقوع الحقيقة تتثاقل الأصوات في أُذنك، ولا تتضح الرؤية في عينيك، تسترجع شريط حياتك فتجد أن ما عشته كان من كتابة وإخراج الآخرين، بينما لم تكن سوى ممثلٍ قضى عمره باحثًا عن دور البطولة.

ببلادةٍ كان يحدّق في طاولة الطعام، يستلذ بطعم الحليب ويغمس البسكويت فيه، بينما كنتُ أشعر بشيءٍ رغم فراغه كان مكتظًّا ومزدحمًا بداخلي.

توجهتُ لغرفتي مجددًا، تقوقعتُ على نفسي وتركتُ البيض

بسلامٍ في المطبخ، ينكمشُ مع الفلفل الأسود والملح.

كنتُ أستمع إلى أم كلثوم عبر مذياع والدتي، وبينما أنا أبحثُ في رسائلها القديمة أسفل سريري، خدَش طرفُ الورقة إصبعي وخرج من الجرح الصغير دمٌ يطلبُ الاستغاثة، بينما كانت أم كلثوم في الجهة الأخرى تردد: "ياللي ظلمتوا الحُب وقلتوا وعدتوا عليه، قلتوا عليه مش عارف إيه، العيب فيكم يا في حبايبكم، أما الحُب يا روحي عليه" ثم يرتفع صوتها برقّة ودهشة، حتى إنني كنتُ قد تخيلتُ اثنين يراقصان بعضهما بعضًا حين قالت: "ما فيش أبدًا أبدًا أحلى من الحُب".

وظللت أتساءل بينما الدم يسيل برفق من إصبعي: هل كان العيب يكمن في والدي أم في حبه لوالدتي؟ ماذا لو أحبّا بعضهما بعضًا غير أن الظروف كان لها رأيٌ آخر؟ هل يدفعنا الحُب إلى التخلي أم إلى التضحية؟.

ثم ذهبتُ لأغسلَ إصبعي وأطهّره.

فعلتُ يومها الكثير من الأنشطة، كتبتُ قصيدةً ثم رسمت، انتهيت من قراءة كتاب، وكأنني لا أريد استيعاب ما يحصل.

إن أجمل ما يحدثُ أثناء الألم هو تجاهلك حين تيأس من ذهابه، إن الإبداع في كثيرٍ من الأحيان هو وليدُ لحظاتٍ سيئة محقونة بجرعاتٍ مضاعفةٍ من الألم، وأسوأ ما يحدث هو عندما تعود في نهاية يومك حاملًا كل الأحداث مرةً أخرى بشكلٍ مضاعف.

(3)

أتذكر عدد المرات التي تم قذفك في السماء وأنت طفل؟ ألم يكن شعور الثقة بالعودة إلى أحضان أحدهم رائعًا؟

تقافزت الأيام وها هي شمس الجمعة تطلّ على النوافذ، الديك هذه المرة لم يصرخ، أجزم أنه مات بسبب ارتفاع حرارة الرياض لهذا اليوم.

لم تكُن وحدها درجات الحرارة في ارتفاع، بل حتى الخيبات كانت كذلك.

غسلتُ وجهي، فتحتُ خزانتي وظللتُ أرقبُ أي نوعٍ من الثياب ألبس؟ كنتُ أريد البحث عن طريق هاتفي عما تفعله الفتيات في مثل هذه المناسبات، غير أن والدي عند ذهابه للعمل يغلق شبكة الإنترنت، لأن الناس في العالم الافتراضي أشرار وذئاب، وللابتعاد عن الذئاب تؤصد النوافذ والأبواب، فللشيطان مداخلُ كثيرة، إلا نافذة المطبخ، فهي نافذةٌ لا تطل سوى على مبانٍ جدرانها تبكي، وعلى نساءٍ لم يفتحن تلك النوافذ منذ الأزل، ولأن الحرائق في الغالب تحدث في المطبخ، فإن الوالد لا يرغب في حدوث حريقٍ في منزل تنازل لأجله عن كل شيء.

للنوافذِ زجاجٌ شفّاف في بقية المنزل، لذا يضع والدي خلفها الكثير من الصُّحف والورق المقوّى والشريط اللاصق، فقد يهيم ابن الجيران بجسدي وقد يراه خلسة، قد يتسلل بعدها لمنزلي، وعندها سيحدث ما لا يُحمد عقباه.

أنا لا أتحدّث عن نكتةٍ أو عن مشهدٍ كوميدي، إنه ليس فيلم كارتونٍ يضحك عليه الصغار، بل واقعٌ من شدّة حقيقته تتمنى لو أنه نكتة.

أنا أمام الكثير من الثياب والقليل مما يصلح لارتدائه، اشتعلت فيّ رغبةٌ لارتداء قميصٍ يحمل صورة ميني ماوس، أو أن أنتعل حذاءً برّاقًا كالأميرات ولكن حتمًا لن يبدو ذلك لائقًا.

نعم، أنا الآن أحضّر لشيءٍ لا رغبة لي به.

"مسلّمة".

هذا ما قالته لي معلمة الرياضيات وأنا في الصف الخامس، وهذا ما أتذكره تحديدًا لأنه العام الأخير الذي ارتدت به المدرسة.

إن المسلّمة تعني جميع الأشياء التي لا يجوز النقاش أو الخوض فيها، إنها الأشياء التي لا بد من حدوثها، أعطيني مثالًا يا زهراء؟ أجبتُ وأنا أقلّب المنديل في يدي: "أعتقد أنها مثل ظاهرة شروق الشمس ومغيبها يا أستاذة" أذكر أن المعلمة يومها وضعت نجمةً على جبيني والطالبات في الصف صفقنَ لي بحرارة، وها أنا ذي اليوم، أتقبل هذا الحدث كمُسلّمةٍ لا بد من وقوعها.

هل سيضع القدرُ نجمةً على جبيني؟ هل سأتوهج لأنني أُقحِمت في هذه العتمة رغمًا عني؟ هل سيصفق العالم لبطولتي؟ هل ستظهر صورتي على غلاف المجلات التي كنتُ أقوم بتخبئتها أسفل وسادتي ويقومون بتوثيق الخبر في

المنتصف؟

ما الذي سيتغير في العالم يا الله؟ هل ستحدث معجزة؟ كأن تمطر الرياض اليوم وسط هذا الجو الحارق لتشاركني البكاء؟ ولا يوجد ما هو أسوأ من أن يشعر المرء باتساع الخيارات، ومحدودية الاختيار.

مضى الوقتُ سريعًا، لبستُ فستانًا من الدانتيل أسود اللون طويل الأكمام بياقةٍ مرتفعة، كأنني في طريقي لحضور جنازة أحدهم، أسدلتُ شعري على كتفي، رسمتُ حوافّ عينيّ الخضراوين بالكحل، وضعتُ أحمر شفاه ثم مضيت.

إن والديِ الفتى توفيا منذ زمن، وأقرباؤه خارج الرياض، هذا سبب عدم مجيئهم.

يرَحِّب بالضيوف ثم ينادي: زهرا زهرا تعالي، دخلتُ وأنا أشعُر باللاشيئية، كل ما حولي يدفعني للبكاء، الإضاءة البيضاء التي أمقتها، رائحة العود القوية، وابتسامات والدي المزيفة.

لقد رأيتُه، إنه الرجل الذي سيصبح زوجي بعد أشهر، يرتدي ثوبًا أبيضَ ويضع على رأسه غترة، أنفه طويل ونحيل، عيناه صغيرتان، كانت تظهر عليه ملامح اللامبالاة، حنطيّ البشرة، متوسط الطول، مستدير اللحية، لم يندهش ولم يكلّف نفسه بادّعاء ذلك، شعورٌ مريبٌ بالشبع كان يغمر وجهه.

شعرتُ وكأنني وردُ اصطناعي، لا رائحة له ولا ملمس، قطعةٌ زائدةٌ من أثاث المنزل، شيءٌ يمكن استبداله، أو شخصٌ لا مرئي.

جلستُ أمامه، راح يسألني:

هل ستكملين الدراسة؟-

والدي يتدخّل: لا، لا رغبة لها بذلك-

- يكمل: كم عمرك؟

- والدي يتدخل أيضًا:

- ثمانية عشر عامًا وستكمل عامها التاسع عشر بعد شهرين

كنتُ ككرةِ قدمٍ يناولها اللاعبون بينهم، دون أن يسجّل أحدهم هدفًا، أنا في المنتصف ووالدي وزوجي المستقبلي يتحدثان بلساني أنا.

"متى يأتي تُرى بطلي؟

لقد خبّأت في صدري

له زوجًا من الحجل

وقد خبأتُ في ثغري

له كوزًا من العسل

متى يأتي على فرَسٍ

له مجدولة الخصل

ليكسر باب معتقلي

فمنذ طفولتي وأنا أمد إلى شبابيكي

حبال الشوق والأمل

وأجدل شعري الذهبي

كي يصعد على خصلاته

بطلي"

بخيبةٍ رددت هذه الأبيات لنزار قبّاني، لطالما أحببتُ قصائده وحفظتها عن ظهر قلب، فبعد الليلة الدامية تلك، كان لا بد أن أشعر بوجودي، وأردد بعضَ القصائد بصوتي الجهوري، لأشعر بأنني هنا مرئية، وما حدث البارحة لم يكن سوى تجاهلٍ غير متعمّد.

هل هذا هو بطلي إذًا؟ رجلٌ لا ينتظر الإجابات الصحيحة، بل الإجابات التي ترضيه؟ أهذا هو الفارس الذي سيأتي "على فرس له مجدولة الخصل؟" هل "سيكسر باب معتقلي" أم سيضعني في معتقلٍ آخر؟

ثُم وضعتُ السماعات وأنا أستمع بخشوعٍ لأم كلثوم، لقد قمتُ بتحميل أغانيها لديّ لتخفف وحشة ليالٍ كهذه.

يخطر في ذهني دومًا أن والدي قد يتسلل في الليل لسرقة هاتفي، ماذا لو تمكّن من فتحه؟ هل ستروق له أم كلثوم؟ هل سيُعجب بعبد الحليم حافظ؟ ماذا عن طلال مداح؟ هل سيجد نفسه بين أغانيه؟ ماذا لو ذهب لألبوم الصور، هل سيحب القصائد التي صورتها؟

تزداد الفكرة رعبًا فأطردها من ذهني مباشرةً ويُخيَّل لي

وأنا أنصت لأم كلثوم أن والدتي هنا تلعبُ بشعري وتداعب خصلاته، ما ضرّ لو ذهبتُ إليها أو عادت هي إليّ؟

(4)

هناك خدش في الباب وثقبٌ في قميصي، الأمر المشترك بينهما هو قلبي

في الهند تحديدًا الهندوس، يقومون بحرق أمواتهم بوضعهم بين كومة من الخشب ودهنهم بمادة قابلة للاشتعال ثم يقومون بإشعال النار على الميت ولا ينتهي الأمر بهذا الشكل وحسب بل إنهم يلقون قليلًا من روث البقر بسبب معتقداتهم بأنه يجلب الخير للميت وذويه! الأمر لا يقتصر عند الهندوس على الرجل الميت وحزن أهله عليه، بل على زوجته المسكينة أن تموت أيضًا معه بإحراقها حية!

أخبرتنا المعلمة هذه المعلومة ونحن لا نزال في الصف الثالث الابتدائي، كانت تتحدث عن صلاة الجنازة وكيفية دفن الميت والفرق بين المسلمين وغيرهم من الديانات ولقد سألت المعلمة في ذلك الدرس عن ما إذا كانت الزوجة الهندوسية ستواجه خطر الإحراق إذا طلقها زوجها فأجابتني: حرق قلبها يكفي.-

علمت فيما بعد أن معلمتي كانت مطلقة وأن كلماتها في تلك اللحظة خرجت من قلب محترق.

أُخرج صندوقي الخشبي من تحت السرير وأقرأ الرسائل التي كتبتها والدتي لوالدي، أمرر أصابعي على القصائد وأتنهد كلما مررت على "آه" كتبَتهَا له من فرط الاشتياق.

أتمتم لنفسي: كيف يمكن لرجلٍ أن يتخلى عن امرأة وهبته

قلبها دون تردد وأتمنى لو أن كليهما احترق بنار الآخر قبل أن أولَد أنا وأتورط ويتورط الآخرون بي بهذا الشكل المثير للشفقة.

لقد تساءلت دائمًا عن سبب إنجابهما لي إن كانا على يقين بأن هذا الحب لا "آخر له"، إنه تمامًا ككل الزواجات التي تبدأ بالحب وتنتهي بشروط القبيلة، لقد كان كلاهما يعلم ذلك ولم يكلفا نفسيهما عناء منع إقحام شخص ثالث في هذه "الكارثة".

"كارثة" هكذا وصفها جدي عندما اتصل عليه ابنه البكر من سوريا وأخبره بأنه تزوج حب حياته وأنها حامل الآن في شهرها الثاني.

عندما نصف كارثة ما فنحن نعلم أن هناك أثرًا ما تخلفه، لهذا كان ذلك أصدق تعبير سمعته عن حياتي!

كأغلب البيوت في المملكة فإن بيتنا كان به سماعة مُعلقة على الجدار لا ترن إلا حين يدق أحدهم جرس منزلنا، ركضت بسرعة لأحمل السماعة: "ألو" أجبت، ثم تذكرت حماقة ما قلته فرددت: مَن؟

كان جدي على الجهة الأخرى يجيب:

- أنا محمد، ثم يردف ذلك باسم قبيلته الذي اعتز به دائمًا.

على خلاف كل الأحفاد كنت أنا الوحيدة التي لا يقول لها جدها: أنا جدك، لهذا اعتدت على مناداته الشيخ محمد أو أبا سالم وكأنه شخصٌ كبير بالسن أقوم بخدمته بدافع الاحترام

ليس إلا!

كان الشيب يعلو صدغه وكان متأنقًا كعادته، يرتدي ثوبًا أنيقًا كأنه في يوم العيد، بالنسبة لجدي فإن أناقته تلك لا يتخلى عنها أبدًا، فكل يوم يستحق أن يكون عيدًا.

جلس أمام الطاولة المستطيلة التي تُزينها مفارشُ صغيرة ثم أمرني بإحضار الشاي له، أخرج نظارته القابلة للطي من جيبه، وضعها على مُقدمة أنفه ثم شرع بقراءة الصُحف التي أحضرها معه.

لم يعتذر عن عدم قدومه لعشاء خطبتي بالأمس ولم يسألني كيف جرى الأمر لأنه ببساطة لا يكترث لي على الإطلاق، فبالنسبة له أنا مجرد حشرة تحوم في الأجواء وتعكر صفو حياته، لو كان الأمر له لداس عليّ منذ زمن بعيد كما فعل مع والدتي حين أجبر ابنه على أن يطلقها وحين هدده بالبراءة منه إن لم يفعل.

ما زلت أجهل السبب الذي جعله يأتي بي من أحضان والدتي إلى هنا إن كان يكره حتى النظر إلى وجهي أو ترديد اسمي حين يُلقي علي أوامره!

دخلت إلى غرفتي وأغلقت الباب على نفسي لقد سألت الله عن سبب ولادة شخص لا تتجاوز حياته حدود غرفته، لقد تساءلت دائمًا عن العالم والكون وكل تلك الأمور ولو كانت أسئلتي تلك ذنبًا فإن حياتي بأكملها كفارة!

(5)

وحيدٌ جدًّا، ذلك الذي يمتلك أخبارًا سارّة وليس لديه من يشاركه إياها

كان يغط في نومٍ عميق على أريكة في غرفة الجلوس، لم يكن من عادات الشيخ محمد فعل ذلك إلا حين تتثاقل عليه الهموم.

كنتُ أقف تمامًا عند رأسه وأتساءل: كيف يمكنني أن أرث جينات شخص صعب المراس كهذا؟

خفضت من شدة الإضاءة ثم ذهبت لتحضير الغداء، كنت أصاب بتوتر شديد حين أشرع في الطبخ له تحديدًا، كان يشبه لجنة تحكيم في برنامج لتحديد الشيف الأفضل، يعرف تمامًا وبطريقة مخيفة - نوعًا ما - المكونات المستخدمة في الطبق مهما كانت كمياتها بسيطة، أحيانًا كان يفوّت مكونًا أو مكونين لكنه يشعر بوجود شيء خاطئ وكأنه وُلِد ناقدًا.

انتهيت من تحضير أصنافه المفضلة من الطعام، ولم أجرؤ على تحضير طبق جديد له – كما جرت العادة - تفاديًا لنقده اللاذع الذي سيكون غالبًا محمولًا بأتعاب يومه الطويل وهمومه التي لا يتشاركها مع أحد.

جزء مني شعر بالأُلفة تجاهه، لقد تسببت وفاة زوجته بنكسة نفسية كبيرة له، لذلك التمست العذر له ولكل ما فعله بي وبوالدتي، كان حُبه لزوجته يشفع له كلما حاولت جاهدة كرهه!

الحُب معدٍ بعكس الكراهية، فهي تحتاج وقتًا طويلًا كي تبث سمومها في أعماق المرء، لم أحمل الكره في حياتي لأي شخص مهما بلغ سوء تعامله معي، ليس لعدم قدرتي على ذلك لكن لمعرفتي التامة بأن الكره يستهلك وقتك وتفكيرك وطاقتك ويؤجج نار الانتقام لديك ويزيد من نوبات غضبك؛ لذلك فإن "عدم الشعور" بشيء تجاه شخص يؤذيني هو كل ما استطعت فعله.

لقد تعلمت ذلك بنفسي، الحياة مدرسة وكل التجاعيد التي حفرتها الحياة على وجه الشيخ محمد علمته درسًا لن ينساه أبدًا، لذلك أحاول تعلم الدروس في سنٍّ أبكر وأطبق ما تعلمته بأفضل صورة ممكنة كأنني في المطبخ تمامًا.

رنّ الجرس، لم أكن أتوقع وصول والدي في هذا الوقت لذلك رفعت السماعة وعلامات التعجب تقف فوق رأسي!

- من؟

- زهراء، افتحي الباب أنا نورة.

كدت أقفز من شدة الفرح، لقد مر وقتٌ طويل منذ أن تقابلنا آخر مرة، فتحت لها الباب الخارجي باستخدام الجهاز الموصول بالسماعة وركضت بسرعة لباب الشقة لأفتحه قبل أن تطرقه، اتكأت على جانب الباب والضحكة "شاقة وجهي" كما تصفها هي.

تعانقنا عناقًا طويلًا وكان بصدري بكاء طويل كتمته لأذرفه على كتفيها، لكنني تمالكت نفسي بقوة الشيخ محمد، كان

عليّ أن أصبح مثله شئت أم أبيت، كلانا مكسور بطريقته الخاصة لهذا فنحن نقف على القارب المثقوب ذاته.

تسابقنا أنا ونورة إلى "المُقلط"، أحضرتُ وسادة صغيرة وضعتها على حجري أما هي فوضعت عباءتها جانبًا على الأرض ثم قبضت على يديّ بحماسة ليس لها مثيل.

تحدثت معي عن حبيبها مشعل والذي وعدها بالتقدم لخطبتها الشهر القادم، فقد استقر منذ ثلاثة أشهر في وظيفة جديدة وارتأى أنه الوقت المناسب لاتخاذ خطوة كهذه.

تنهدت وأنا أبتسم ابتسامتي الصفراء، أعلم في أعماقي أن هذا الزواج مستحيل بينهما خصوصًا والشيخ محمد على قيد الحياة، كان حبيبها من قبيلة أخرى، وكانت نورة على علم تام بأن هذه العلاقة تحمل الكثير من المتاعب لكنها تشبه عمها "سالم" فيما يتعلق بموضوع الحب.

لقد شعَرَت بخوفي وارتباكي على الرغم من ادعائي عكس ذلك تمامًا، لكنها نورة وليست أي شخص!

تنهَّدَت ثم أردفت قائلة:

- أعلم أن هذا الحب مستحيل، لكنه جميل جميل جميل.

قالت تلك العبارة وهي تُغمض عينيها وقد بدت وكأنها فراشة تحلق في الأرجاء ولن يمنعها شيء من التوقف!

كان ما قالته أشبه بقصيدة لا يمكنني إكمالها، فالنهاية معروفة، والمشهد مؤلم لكليهما لذلك آثرت الضحك على

كتابة الشطر الثاني لبيتٍ مكسور!

(6)

أريد أن أتحرر من كل هذه القيود، دون أن أوذي معصمي.

علاقتي بنورة كانت تشبه الأدرينالين بالنسبة لخائف، كل مغامراتنا التي خضناها معًا كانت أشبه بركوب قطار الموت في مدينة الملاهي، أذكر جيدًا حين سرقت سيجارتين من حقيبة شقيقها، لقد سعلنا كثيرًا ذلك اليوم، وحين ساعدتها في كتابة أول رسالة غرامية لمشعل، لا أنسى كيف بدا جدي قُبيل يوم العيد حين أسقطت نورة بعض الألعاب النارية خلفه انتقامًا للطريقة التي يعاملني بها.

طلبتُ منها أن تبيت عندنا الليلة، لكنها أخبرتني أنها تسللت إلى هنا دون علم والدتها، لقد نشأ كره أفراد العائلة لي من تعامل جدي معي، لقد ظلوا ينادونني "بنت السورية" وحين تُقام أفضل احتفالاتهم حيث يجتمع جميع أفراد العائلة وأصدقاؤهم كنت أنا الوحيدة المستثناة من القائمة، وبسبب المرات التي آثرَت فيها نورة الجلوس معي على احتفالاتهم نشأ هذا الخلاف بينها وبين والدتها والذي أدى إلى قرار إبعادنا بعضنا عن بعض للأبد.

سُحقًا لهم.. هكذا كانت تقول نورة حين تجلسُ معي ونشاهد فيلمًا، كانت تطلق أفظع الشتائم عليهم كأنها لا تنتمي إليهم أبدًا، لقد كانت مختلفة عنهم جميعًا، كأن كل الجمال الذي بداخلها أطلق عنانه على وجهها، بعينيها العسليتين وأنفها الصغير المستقيم وشفتيها المكتنزتين كانت تشبه الممثلة

البوليوودية الشهيرة: "ديبيكا بادكون".

سألتني وهي تضع يدها على رقبتها وتميل برأسها للناحية اليمنى وترمش بعينيها بسرعة:

- حسنًا، ما رأيك به؟

سألتها بحيرة:

- مَن؟ مشعل؟

ضحكت ثم قالت:

- لا يا غبية، أقصد ماجد.

علامات الاستفهام بدت واضحة على وجهي، سألتها في حيرة أكبر:

- مَن ماجد؟

قَهقَهت حتى إنها لم تعد قادرة على التنفس ثم قالت:

- أعتقد أنك تمازحينني!

هززتها بقوة كي تخرج من نوبة ضحكها ثم قلت:

- إن كان لديك مصيبة فقوليها، أما أن تسخري مني بهذا الشكل لأجل شخص لم أعرفه فأنتِ تجعلين من نفسك أضحوكة!

تمالكت نفسها ثم قالت:

- صدقًا ظننتك تمزحين معي، لكن أظنك حقًّا لا تعرفين أن

اسمه ماجد.

سألت: مَن؟

أجابت: خطيبك يا حمقاء!

احمرّ وجهي خجلًا، كان وجهي بمثابة "فضيحة" كما تصفه نورة، تداركت نفسي ثم قلت بحسرة:

- أعتقد أنني لم أكن جميلة بالقدر الكافي ذلك اليوم، كان ينقصني وجود شخصٍ يخبرني كيف أتصرف أو ماذا أرتدي، كنت أحتاج شخصًا بجانبي مثلك أو... سكت لبضع ثوانٍ ثم أردفت: مثل أمي.

تنهدَت نورة ثم احتضنتني دون أن تقول شيئًا، لقد شعرَت بمدى وحدتي ورغبتي العميقة في البكاء، لكنني كبحتُ جماح الدمع وابتعدت عنها قائلة: لا أريد أن أبكي اليوم!-

"هكذا إذًا" قالتها وهي تعقد حاجبيها ممازحة، هيا بنا نصعد إلى السطح، لدي مفاجأة لكِ.

قلتُ متأففة:

- نورة الشمس ستشوينا اليوم.

بتثاقل كنت أجرُّ خطواتي خلفها نحو السطح، حتى فتحت نورة الباب وكدت أصاب بالعمى، رفعتُ مرفقي عبثًا على عيني وأنا أصرخ:

- نورة أشعر أنني فقدت حاسة البصر.

قالت ضاحكة:

- اصعدي بسرعة لم يتبق إلَّا بضع درجات!

كان جبيني يلمع من شدة الحر، بينما وجنتاي فكما تصفهما نورة: طماط، كان جلدي لا يحتمل الشمس ليس فقط لأنني نادرًا ما أغادر المنزل لكن لأن شمس الظهيرة في الرياض كانت تُسقط أي شخص أرضًا، صرختُ:

- انظري، حتى الطيور لم تحتمل حرارة الرياض!

كان على السطح عصفوران وحمامة قد لقوا مصرعهم.

ركضت نحوها وأنا أسألها:

- ماذا لديكِ؟ أتمنى أن يكون شيئًا يستحق كل هذا العناء

قالت وهي تغمز:

- معي رقم ماجد.

(7)

الحب كالجريمة، لا يمكن أن يكون كاملًا.

الساعة تشير إلى الثالثة والنصف فجرًا، تعمدتُ الاستيقاظ قبل والدي حتى أتمكّن من التحدث مع ماجد.

لقد تم عقد النكاح دون أي شروطٍ مضافةٍ مني، لأنه - وبطبيعة الحال - لا يمكن أن تضع شرطًا لتسلك طريقًا قد ابتلع قدميك وطُبعت كل المسافات عليه.

ها هي الفرصة تُمسك بيدي الآن وتهمس في أذني، «فلتتصلي على ماجد» وفِي أحيانٍ كثيرة لا تتاح لي فرصٌ كهذه ورغم أنني مُجبرةٌ على هذا الزواج، غير أنني كنتُ أفضل أن أضيف عليه بعضًا مني، أن أشعر بأنني أنا التي اختارت هذه الحياة، أليس صعبًا على الإنسان أن يعيش حياتين كاملتين مجبرًا؟

ثمّة شقاءٌ مخيفٌ في أن تحوّل «المسلّمات» لـ «اختيارات» وتمضي كمن «يكذب كذبةً ثم يصدِّقُها» لكن بعض الأكاذيب تمنحنا شيئًا من اللذة المؤقتة

نعم أنا أتحدث مع رجلٍ سيصبح زوجي عمّا قريب وأنا أتسلل، لأن العادات والتقاليد في قبيلتنا ترفض ما يُسمى بـ «فترة التعارف» أو «فترة الخطوبة».

٠٥٣١ أكملتُ الرقم ثم نقرتُ على زر الاتصال، كنت أستمع إلى نغمة الانتظار وأنا في أقصى درجات توتري، قلبي يخفق

بشدة وأشعر بحرارة في أذنيّ.

- ألو

هكذا انساب صوت ماجد قاطعًا طريقه نحو أذني

- أهلاً، ماجد؟

- نعم، من يتحدث؟

- أنا زهراء سالم، خطيبتك

- نعم نعم، لقد عرفتك

ثمّ عمّ الصمتُ بيننا، سكونٌ مريب خالجنا، مثل مياهٍ في قاع البئر

- بالمناسبة، كنتِ تبدين جميلةً ذلك اليوم

وكمن يرمي صخرةً تشتت سكون الماء في ذلك البئر، هكذا بدا صوتي، مترددًا ومرتجفًا

- ح.. حقًّا؟

انهالت الأحاديث بعد ذلك التردد والسكون، ثمّة دائمًا دلوٌ يمدّ يده نحو الماء لينتشله من عتمة القاع لضوء القمة.

لقد تحدثنا عن التاريخ وعن السياسة، عن قوانين الجذب، عن مناخ الرياض، وعن فريق الاتحاد السعودي لقد اتفقنا على ولعنا به.

صدح صوتُ أذان الفجر في الخارج، سيستيقظ والدي الآن.

- تمسي على خير ماجد

- وأنتِ من أهلي زهراء

لقد مرّت تلك الكلمة سريعةً وجميلة، «وأنتِ من أهلي» لا يعلم كم من غربةٍ بدّدها بداخلي، هل يعني أنه وطن؟

لقد نطق اسمي كما على اسمي أن يكون، دافئًا دون أي خطأ، منتهيًا بالهمزة.

لا أعلمُ لِمَ كل هذا الاندفاع الذي أصابني فجأة، أيعود السبب إلى أنه الرجل الأول في حياتي؟ هل لأن الانحباس يجعلنا ننهمر دائمًا بعد أول فرصة؟

أغلقتُ الهاتف ثم غفوت.

(8)

أنا أعتذر لأن حبي للأشخاص يُفقدهم اللذة، يُحفز لديهم رغبات الانتحار، ولأنني كلما حاولت إنقاذهم دفعتهم نحو الهاوية.

مرّت الأيام..

يُقال إن الحُب فخٌّ، ما أن تطأ قدمك فيه حتى يبتلعك بالكامل.

وهذا ما حدث، لقد أخذني حب ماجد بشكلٍ كُلّي، لم يَكُن رجلًا يجيد إظهار مشاعره دائمًا، لكنه كان يجيد مشاطرتها.

لقد شاطرني ماجد طوال الفترة الفائتة، الألم، الفقد، السعادات البسيطة، طفولتي المتأخرة، التفاصيل الصغيرة، وكنتُ أبدو معه فقط شخصًا لم يسبق لي أن كنته، كنتُ أنا التي لم تظهر لوالدي أو لأي فردٍ آخر، كنتُ على سجيتي معه.

استيقظت في تمام الثامنة صباحًا، حضّرت الإفطار.

والدي مستيقظ، شاردٌ على غير العادة، جلست بجواره ورحت أتساءل

- فيم تُفكّر يا أبي؟

- في المسافة التي ستقطعينها من الرياض لتركيا

- كنتُ أحدّق به بعينين ممتلئتين بالأسئلة، أنا؟ أذهب لتركيا!

- نعم، لتطمئنّي على والدتك

كانت والدتي قد انتقلت للعيش في تركيا بسبب الحرب الدامية التي حدثت في سوريا

- هي من طلبت ذلك؟

- لا، لكنها بالتأكيد تحتاجك، لذا سيكون موعد رحلتك بإذن الله غدًا، صباح الأربعاء، لقد رتبت كل شيءٍ معها لا تقلقي.

هكذا اعتاد والدي دائمًا على اتخاذ القرارات المصيرية دون انتظار أي رد.

ذهبتُ لغرفتي، إنني أشعر بسعادة غامرة، سألتقي بأمي أخيرًا، رحتُ أوضب حقيبتي، لا بد أنها تعيش في منزلٍ صغيرٍ وبسيط، وضعتُ أكياسًا من تمر «العجوة» داخل الحقيبة، وزجاجةً من المسك.

هرعت لهاتفي لأتصل على نورة، وأزف إليها هذا الخبر.

لم تكن ردات فعل نورة أخف جنونًا مني، لقد صرخت لمرّاتٍ عديدة، حتى شعرتُ أنها ستبتلع لسانها من فرط الحديث.

وأخيرًا ها هو صباحُ الأربعاء يطرق نافذتي، لقد أتى ببطء حتى ظننتُ أن أسبوعًا كاملًا مضى ليلة الثلاثاء.

شعرتُ بتشنّجاتٍ في رحمي، وسائلٍ دبق يخرج مني، فتحتُ الأنوار فإذا بالملاءات ملطخة، تبًّا.. إنها الدورة الشهرية.

بدّلت الملاءات وأنا أشعر باختلالٍ في توازني، اليوم رحلتي وأنا بالكاد أشعر بأطرافي.

توجهنا إلى المطار..

والدي قد غلبه الصمتُ هذه المرّة، توقفنا عند محطة البنزين، فإذا به يخرج محفظته، مهلًا إنها صورة والدتي، كيف ذلك! وهو الذي اعتاد على تمزيق صورها! استرقتُ النظر إلى المحفظة حتى انتبه لي، فأعادها بسرعة لجيبه.

أكملنا الطريق، إنه يحدّق في الإشارة - كما يجب أن أراه - لكنني عوضًا عن ذلك كنتُ أُبصره يقترب من مقود السيارة ليكفكف أدمعه خلسة، لطالما كان والدي رجلًا قاسيًا، أو ربما هذه هي الفكرة التي أراد أن يأخذها الجميع عنه.

ولا أعلمُ في الحقيقة إن كان يبكي عليّ أم يبكي على محبوبته التي لم يستطع تمزيق صورتها تلك إلى الآن، كيف لا ومشاهد ضحكتها ووجهها ترفرف في ذاكرته!

الإعلان الأخير للرحلة رقم ٣٠٠ والمتجهة بمشيئة الله إلى – إسطنبول - الرجاء التوجه إلى البوابة رقم ستة، استعدادًا لركوب الطائرة، مع تمنياتنا لكم برحلةٍ سعيدة.

هكذا انبعثت الكلمات من مكبّر الصوت بالمطار، إنها المرة الأولى التي أذهب بها للمطار، حملتُ تذكرتي وحقيبتي وتوجهتُ إلى الطائرة.

كنتُ أسند رأسي بيدي، رحتُ أتأمل العالم الذي ورغم اتساعه تفرّقه قبيلةٌ ولون، كيف بدا ضيقًا وصغيرًا فجأة؟

غلبني النوم إذ إنني وفي ظل الظروف السابقة كنتُ متعبةً للغاية، المسافةُ طويلة، استيقظتُ فإذا بي على المقعد نفسه، والرجل المسن الذي بجانبي يغط في النوم.

أخرجتُ رواية «شحاذو المعجزات» من حقيبتي اليدوية، ورحت أقلب صفحاتها بعشوائية، كانت نورة هي مَن أعارتني إياها، تأملتُ السطر الذي حدَدَت أسفله بخط رصاص خفيف:

«عندما ننتظر معجزة ما، نصبح محصنين ضد الألم».

فما هي إلا ساعاتٌ قليلة حتى هبطت الطائرة.

توجهت بعدها إلى إسطنبول تحديدًا في منطقة «ترابيا».

أشرتُ إلى السائق بيدي ليقف، هذا ما يقوله الموقع على الخريطة في هاتفي.

بدا المنزل من الخارج عظيمًا، كما لو أن أحدهم قد قدم إليه لتصوير مشاهدَ لمسلسل تركي أو ما شابه، منزلٌ جدرانه زجاجية ويطل على حديقةٍ خضراء جميلة، والإضاءة الخافتة من الأطراف كانت قد منحته منظرًا بديعًا.

هل هذا هو المنزل حقًّا؟ لا بد أن هناك خطبًا ما، اتصلت على والدتي ووصفتُ لها المكان بذهول، وأنا أقول بخيبة:

- لكنه لا يمكن أن يكون منزلك صحيح؟

- بلى هو كذلك، تعالي وسيخرج رجل لاستقبالك أعطيه حقائبك ليحملها.

نزلتُ من السيارة وأنا أرفع رأسي عاليًا فمي مشرّع حتى إنني بالكاد استطعت إغلاقه.

لمحتُ الرجل خارجًا من المنزل أعتقد أنه في مقتبل الثلاثين

من عمره، كنت أرتجف من فرط توتري حين حمل الحقائب من يدي ثم أومأ برأسه وابتسم برقة.

أسير خلفه إلى غرفة جلوس رحيبة مترامية الأطراف، غاية في النظافة لا تشوبها شائبة، ينم كل ما فيها عن ذوق رفيع، ويبدو أن كل شيء قد وُضع في مكانه المناسب في انسجام وتناسق.

جاءت والدتي، وهي ترتدي فستانًا أزرقَ على جلدها الأبيض، مُسدلةً شعرها الأحمر، تضع أقراطًا من الذهب الخفيف وتُزين عينيها الزرقاوين بخطوط جانبية من الكحل.

مضت وعطرها قد ملأ الأرجاء، وشفتاها المكتنزتان تكملان اللوحةَ على وجهها.

لا بد وأن والدي كان سيغشى عليه لو رأى والدتي الآن، امرأةٌ في غاية الجمال، الأنوثة، وكل ما بها يدعو للإغواء.

سرعان ما أخذتني في أحضانها، ثم قالت:

- أعرّفك على زوجي، كنعان.

ابتسم الرجل الذي استقبلني، لم يكن يتحدث العربية، لكنه ابتسم حين سمع اسمه وأمي تشير إليه بسعادة.

شعرتُ بخفّة قدميّ على الأرض وثقلٍ في رأسي، طنينٌ قد اشتد في أذني، وما عدتُ أرى سوى شفتيها تتحركان دون أن أتمكن من سماع الصوت.

هذا هو إذًا زوجها، وبالتأكيد الطفل الذي يلعب بالطعام

ويلقي به هنا وهناك ابنها، هكذا كأسرةٍ هانئة، كعائلةٍ كما تقتضيه الطبيعة.

نظرتُ إليها وجيشٌ من الدموع حاصرني، نظرةٌ مطوّلة تحكي عن حفلات الأمهات التي أقيمت بالمدرسة وكنتُ بها وحدي، عن أعياد الأم الخالية من بطاقات التهنئة، وعن الأعوام التي قضيتها بمرارة وأنا أتفحص هاتفي بخيبة لأحصل على رسالةٍ منها، عن والدي، الرجل الشرس الذي كان حبه لها يروّضه، عن مشهد أصابعه وهو يتحسس صورتها في محفظته، عن الحنين الذي كوّمته بصدري لها، عن ياسين الصبي المدلل الذي عاش حياتي عوضًا عني، فما الذي كان ينقصني؟

- هنا على اليسار غرفتك، استريحي قليلًا

هكذا قالت الأم مريم.

ألقيت بجسدي المتهالك على السرير وغمرت وجهي بالوسادة، وبكيت، بكاءً حارقًا من فرطه كدتُ أخرج قلبي من فمي وأرمي به في أي مكانٍ آخر، عدا صدري.

(9)

سأمضي إلى وحدتي بقدمين عاريتين، وأجرح نفسي آلاف المرات بدهس شظايا كل أولئك الذين وعدوني بالبقاء وكانوا أول الراحلين.

استيقظتُ هذا اليوم، ٤ مكالماتٍ فائتة من ماجد، ٣ رسائل على الواتس آب من نورة، و٧ مكالماتٍ من والدي.

ما الذي يمكن أن تفعله امرأة لتوقظ شغافَ رجُلٍ على حافة الخمسين وتجعله قلقًا إلى هذا الحد؟ كيف بوسعها أن تجعلهُ غارقًا طوال هذه السنين بشكوكه دون أن تنقذه باليقين لمرةٍ واحدة وتقول له «لقد تزوجت»؟

في الواتس آب، آخر ظهورٍ لوالدي كان في تمام الساعة ١١:٠٤ أي أنه كان يتفقد هاتفه قبل ٣ دقائق من الآن!

أنقر على مسجّل الملاحظات الصوتية بأصابعي بقوة ثم أعيد سحبه ورميه في سلة المهملات، ماذا عليّ أن أقول؟ أي قوسٍ ذلك الذي سيخفف من حدّة السهم طالما أنه سيتجه مباشرةً نحو قلبه؟ جمعت قواي ثم سجلت: «صباح الخير والدي، أنا بخير، والأجواء هنا رائعة» أراهُ يكتبُ ثم يمسح، وكأن أصابعهُ تود البوح بشيءٍ ما، للأصابعِ أفواهٌ وألسنة.

- كيف هو حال أمك؟

هكذا جاء السؤال حاملًا الكثير معه، مثل الدمية الروسية ماتريوشكا، وهو يقصد «أما زالت تحبّني؟»، «كيف بدت؟» ،

«هل سألت عني؟»

- إنهم بخير.. هكذا جمعتُ مفردته الوحيدة، فهي الآن في طور التحول لمعجمٍ يحمل بين طيّاته ياسين والمزيد من الأطفال.

ثم أضفت «والدتي، كنعان، ياسين»، لأخرج السهم من صدره، إن أكثر ما يؤلم المُصاب بجرحٍ غائر هو سحب الرصاصة أو السكّين الذي يطعنه، وكلما تعجّل سحبها خفت وطأةُ الألم، لم أشأ أن أماطل، كنتُ أشعر به يصرخُ وأنا أكتبُ «هُم»، فكل الطرق تؤدي إلى «الطعنة».

- من هؤلاء؟ أبناء خالك؟

- لا، كنعان زوجها، ياسين ابنها

آخر ظهور الساعة ١١:٥٠، هذا آخر ما رأيته، لم أُلح عليه، ولم أُرسل بعدها، على بعض الجراح أن تأخذ وقتها في الالتئام.

خرجتُ من الغرفة، ياسين جالس على الأريكة يمرر أصابعه على فمه ويلعب بلعابه.

توجهتُ إلى المطبخ، سحبتُ كرسيًّا خشبيًّا ثم جلست، لم تعرني والدتي أي انتباه، حتى وقفتُ وأنا أنظر إليها وأتساءل:

- متى حدث كل هذا؟

- زهراء عزيزتي فلتهدئي، إن الأمور حدثت بشكلٍ سريع ولم تحصل فرصةٌ ملائمة لأخبرك

قاطعنا كنعان، بجسده العريض وشعره الرمادي، بعينيه الواسعتين وابتسامته العريضة، راح يقترب من القدر الذي طبخت به والدتي كرات اللحم ويحرك يديه نحو أنفه وعيناه مغمضتان ثم تنهد تنهيدة طويلة وكأنه بذلك يعبّر عن أن رائحة الطعام زكية، ثم قبّل والدتي وتحدثا معًا بالتركية.

عدتُ للغرفة مجددًا، إن هذا المنزل ورغم وسعه يضيق بي، اللوحات تخنقني، وأشعر أن السقف يقترب من أنفي، وأعين المرأة في اللوحة تحدّق بي، اتصلتُ بماجد وأنا أبكي، المسكين كلما حاول التخفيف عني قال: «سأتزوجك» وكأن حياتي حريقٌ وهو سلّم طوارئ.

(10)

ونسألك المسافات الواسعة عدا تلك التي بين العناقات.

كانت الساعة تشيرُ إلى التاسعة صباحًا، استيقظت على صوت أمي وهي تردد: «الفطور جاهز، هيا»، بينما امتدت يدها بخفة إلى ستائر غرفتي، دفنتُ وجهي في الوسادة وأنا أردد بصوت مكتوم: حسنًا.. حسنًا..

وجدت نفسي بعد نصف ساعة تقريبًا على ظهر سفينة بخارية تنقل المسافرين بين المدينة والجزر. عشاقٌ يسرقون القُبلات، أطفال يركضون ويصرخون، أحدهم يمثل أنه قبطان والآخرون كانوا قراصنة، أما والدتي فكانت تحمل حقيبة يدها وتداعب ياسين الذي كان نائمًا في أحضان والده. شعرت أنني خارج هذا المشهد وكان الأمر يُشعرني بالغربة، كنت أبدو مجرد سائحة تلتقط صورًا للبحر والنوارس، جلست هناك بجانب رجلٍ مسن وأنا أتأمل العائلة التي لطالما حلمتُ أن أكون جزءًا منها، تخيلت أصابع أبي تتخلل خصلات شعر أمي، تخيلتهما معًا وأنا هناك أطبع قُبلة على خد أحدهما وأتمايل برقة.

لستُ شخصًا حسودًا لكنني شعرت لحظتها بالغبطة، تخيلت حياتي بشكل مختلف وعشتُ لحظات ذلك الاختلاف بيني وبين نفسي بكل حب، لا أعلم لماذا كنت أعتقد أن هناك رابطًا بين الأم وأطفالها، ذلك الرابط الذي يُمَكِّنُها من معرفة إذا ما كانوا يشعرون بالاستياء أو تطير قلوبهم من فرط البهجة، لكن الواقع كان يبدو لي مختلفًا تمامًا مهما حاولت ترتيب المشاهد

وإعادة صياغة الحوارات فالممثلون كانوا جميعًا ضد المخرج، وفي أحيانٍ كثيرة كانوا يطردونني خارج المشهد!

أذكر جيدًا ما وصفتني به موضي (زوجة عمي سعيد) في أول يوم عيد حين خلد جميع الصغار للنوم بينما تسللنا أنا ونورة لنسرق عيدياتهم - بتحريض مني -، لقد وبختني بشدة ثم قالت كلمة لم أتمكن من نسيانها طوال السبع السنوات الماضية: (إنتِ جيعانة، عيونك ما تشبع)، قالت ذلك وهي تجرُّ يد نورة خلفها في حين كانت الأخيرة تصرخ وهي تدعي أنها هي من حرضتني على السرقة.

كانت تلك الجملة هي ما تصف حقيقتي بطريقة مُرعبة، نعم أنا لا أشبع من الأشياء إلا حين أتألم منها، لم يكن وصف موضي آنذاك محض لحظة غضب غير مقصودة بل كان من واقع شاهَدَته هي بأُم عينها في كل مرة نلعب أنا ونورة لعبة، كانت نورة أول مَن يشعر بالملل أما أنا فلم أكن أنفك ألعبها حتى أفقد الإحساس بالوقت وبنورة وبكل ما حولي، أنا أحبُّ الأشياء حد الخطر، أصب كامل تركيزي عليها بعكس نورة التي كانت في مراتٍ كثيرة تترك ألعابها لي قبل أن تغادر.

حاولت أن أُشبع نفسي الجائعة بالرضا إلى هذه اللحظة التي أجدُ فيها نفسي بعيدة وخائفة ومُصابة بدوار البحر.

أنا لستُ خارج الصورة وحسب، أنا خارج حياة الجميع ومحبوسة في حياة صبية أخرى، لا أعلم كيف سُرقت حياتي وهي مخبأة طوال الوقت في صدري، في أمنيات العيد، في دعوات رمضان، على صفحات مذكراتي، وبين كل اللحظات

التي يمسك بها الآباء أيدي أطفالهم ويعبرون بها إلى الجهة الأخرى من الشارع.

لقد عبروا بحياتي إلى ضفة أخرى وتركوني في منتصف الطريق أتأمل المارة وأخطُّ ذكرياتي عنها على جدران البنايات القديمة.

لوَّحت لي أمي بيدها من بعيد إشارةً منها بأننا وصلنا إلى ميناء (غوزيل ياله) على شاطئ مدينة بورصة.

كنا في طريقنا إلى شقة يسكنها والدا كنعان، توقفنا في الطريق أمام بائع متجول يبيع ساندويشات كباب تفوح رائحتها العبقة في الأرجاء، تناولت الساندويش على عجل كمن يخاف أن يلهيه الأكل عن مشاهدة مقطع مهم في فيلمه المفضل، نظر لي كنعان عبر مرآة سيارة الأجرة فانفجر ضاحكًا، ثم علق بالتركية على شكلي وأنا ألتهم طعامي بشراهة فحبَسَت الأخرى ضحكتها وهي تسترق النظرات اعتقادًا منها أنني لم أفهم ما كانا يرميان إليه، شعرت ببعض الإحراج واحمَرَّت وجنتاي فحاولت تدارك الأمر بفتح زجاج نافذة السيارة، أسندت رأسي على يدي وشرعت في تأمل المارة، امرأة تدخن السجائر على عتبة باب متجر للأواني الفخارية، رجلان يتصافحان بحرارة، أطفال يتسابقون على دراجاتهم الصغيرة، وعلى الرغم من كل تلك المشاهد التي تطايرت إلى نافذتي كحمام تركيا، شعرت ببعض الهدوء الذي يعم هذه المدينة، كان الأمر مختلفًا تمامًا عما رأيته في إسطنبول.

لم تمضِ إلا نصف ساعة تقريبًا حتى وصلنا إلى بيت عائلة

كنعان، ترجل من السيارة سريعًا ثم رفع يديه وأخذ يصفر بحماسة شديدة، كان يقف أمام سياج حديقة منزلهم، خرجت امرأة طاعنةٌ في السن، تغطي مقدمة شعرها بما يُعرف باسم «البندانا»، كانت ترتدي تنورة فضفاضة بلون أزرق وقميصًا أبيض بأزرار، بينما كان الزر الذي بين نهديها يتوسل الموت أو الحياة، هكذا تخيلته يستنجد السيدة أم كنعان كي ترحمه من عذاب وجوده في مكان يبذل به قصارى جهده ليسترها.

كتمتُ ضحكتي وأنا أتخيل هذا المشهد فرمقتني والدتي بنظرة استياء.

ابتسَمَت لنا جميعًا ورحبت بنا ترحيبة لطيفة وقامت باحتضاني وكأني حفيدتها التي كانت تنتظر عودتها منذ زمن، لم أعرف كيف يكون شعور الحضن رائعًا ودافئًا قبل هذه اللحظة، لقد كانت أم كنعان امرأة في غاية البساطة واللُّطف، رائحتها كرائحة الخبز عندما يخرج من الفرن، لقد شعرت أنها مألوفة بالنسبة لي بهذا القدر من الدفء، كأنني عرفتها منذ أن وُلدت أو كأنها حملتني بين ذراعيها ورددت الأذان في أذني، ربما قد وبخت والدتي لأنها نسيت تغيير الحفاضة لي، أو ربما احتضنتني عندما استيقظت في أول يوم لي كامرأة ووجدت بللًا على ساقيّ وبقعة حمراء تلطخ ثوب نومي، لقد كانت هناك حين أجهشت بالبكاء لأنني ظننت أن أحدهم جرحني، لقد مسحت على رأسي وقالت أنتِ بخير، أنا هنا لأجلك!

هذه هي المرأة التي تخيلتها بجانبي طوال الوقت، إنها عرابتي أو ربما كانت ملاكي الحارس، كم أنا محظوظة حقًّا

لالتقائي بها قبل أن أموت وأنا أعتقد أنها كانت محض خيال.

جلسنا حول طاولة في حديقة منزلهم، وزعت علينا أكواب شاي شفافة ثم نادت ابنتها التي بدت أنها تصغر كنعان ببضع سنوات فقط، كانت ترتدي بنطالًا من الجينز وتيشرت أصفر، جلست أمامي مباشرة بينما جلست أم كنعان (غونيش) على يساري، في كل مرة يتحدثون بالتركية عن أمر ما تحاول غونيش جاهدة شرح الأمر لي بلغة الإشارة، لم تكترث لمعرفة أمي باللغة العربية لقد حاولت فعل ذلك بنفسها، كأنها هي المعنية بي.

كانت عيناي تلمعان بشدة، هكذا تخيلت نفسي في كل مرة ربتت بها غونيش على كتفي أو قبضت على يدي بلطف، لا أعلم متى كنت سعيدة لهذا الحد الذي لم يعد يعنيني أحد، لا أبي الغارق في أحزانه، ولا أمي الغارقة في ضحكها، كانت غونيش بجانبي وهذا كان كافيًا جدًّا.

(11)

ينتابني شعور غريب حين أراقب الأشياء البعيدة والمستحيلة، أتخيل نفسي أركض نحوها، أمسكها بيدي، أضغط عليها ثم أتركها ترحل

أرشدتني غونيش إلى غرفتي في الطابق العلوي، تدلى من سقف الغرفة مصباح ضوئي تجمهرت عليه بعض الحشرات، بينما عُلق على امتداد الحائط سلك عُلقت عليه بعض الصور.

غادرت غونيش تاركة باب الغرفة مواربًا، سحبتُ إحدى الصور، كانت لرجل يرتدي بدلة حربية حاملًا بيده اليمنى بندقية، كان يشبه كنعان كثيرًا بينما بقية الصور كانت لأطفال تتراوح أعمارهم بين الثالثة والخامسة.

ألقيت بجسدي المتهالك على السرير وأنا أتأمل الحشرات وهي تنتحر باقترابها من الضوء.

أتذكر شرح معلمة العلوم وهي تردد على مسامعنا تلك المعلومة الغريبة عن الخداع البصري الذي يُصيب الحشرات بحيث ترى بشكلٍ وهمي مناطق مظلمة بالقرب من الضوء فتندفع نحوها وهنا المفاجأة.. هذا كان هلاكها!

رحت أفكر مليًّا في عدد المرات التي نتدافع بها في الحياة نحو الطرق المضيئة، ونحن في غمرة اندهاشنا بها ننسى أجزاءنا محترقةً على أطرافها، وهنا تكمن الخدعة، بعض أطواق النجاة كانت في الأصل حبال مشنقة، والكثير من الفؤوس ولدت من جذع شجرة!

قاطعت أمي حبل أفكاري حين طرقت باب الغرفة، اعتدلت في جلستي تسلل رأسها من طرف الباب وكأنها تتساءل عما إذا كنت أسمح لها بالدخول، فأومأت برأسي موافقة.

جلست بجانبي، كانت ترتدي قميص نوم أبيضَ من الساتان تزين أطرافه الدانتيل، بينما رائحة عطرها تفوح في الأرجاء، برقة خبأت خصلة من شعرها خلف أذنها وابتسمت بلطف، ثم سألتني إن كنت أشعر بالارتياح هنا أم لا.

كانت تتأمل الغرفة وعلى وجهها رُسمت ملامح التقزز بينما تمرر أصابعها على حافة السرير.

ثم علَّقَت متسائلة:

- ألا يوجد في منزل هذه العجوز غرفة صالحة للمكوث البشري؟

- أجبتها: نعم!

نظرَت لي مستنكرة ثم سألت:

- ماذا تقصدين بنعم؟

رددتُ:

- أنا أشعر بالارتياح الشديد هنا، في الواقع العجوز التي تلتصق شذرات غبار منزلها بأصابعك كانت أجمل من صادفت في هذه الرحلة كلها.

بدا التوتر واضحًا عليها، حيث كانت تفرقع أصابعها وتهز

قدميها ثم قالت:

- أتعلمين.. أشعر بالندم الشديد لكل ما تشعرين به الآن نحوي ونحو والدك، كنتُ دائمًا متغيبة عنك، وفي أيام كثيرة كنت أتعمد تجاهل مكالماتك لأن ذلك يجعلني أشعر بالنقص تجاه نفسي!

شعرتُ بحرارة في أذني، رمقتها بنظرة موبخة ثم قلت:

- لم تفعلي ذلك لأنك شعرتِ بالنقص تجاه نفسك إنما رغبة منك بمحوي من حياتك المثالية، فأنا بالنسبة لك لستُ سوى ماضٍ يُفسد عليكِ لذة الحاضر أو ربما كنت مجرد وسيلة انتقام لقصة حب لا تلائمك نهايتها، أنا الخطأ المطبعي فيها، ذلك الذي تودان بشدة التخلص منه!

اغرورقت عيناها الزرقاوان بالدموع، كانت تبدو كقارب ثُقبت كل أشرعته، طأطأت رأسها ثم تنهدَت وغادرت الغرفة!

ألقيت برأسي المثقل على الوسادة، شعرت بخدر في أطرافي ولم أشعر بشيء سوى الألم الذي راح يطرق رأسي عنوةً دون توقف، تناولتُ أقراصًا منومة كنتُ قد خبأتها في جيبي، فما هي إلا دقائق حتى أخذ مفعولها يسري في جسدي ونمت.

(12)

المبالغة في الرحيل، التفات

هبطت الطائرة..

قررتُ الرحيل عن تركيا، يرحلُ السيّاح حين يشعرون بالحنين إلى أوطانهم، لم تكن تركيا موطني، فالأوطان جميعها مَنافٍ في الأصل، غير أن ساكنيها يمنحوننا الانتماء، ألم تسمعي من قبل بقصيدة قيس حين قال لليلى:

وما حب الديار شغفن قلبي

ولكن حب من سكن الديارا؟

هكذا كانت تقول لي نورة في كل مرّةٍ شعرتُ فيها بالغربة في الرياض، والشعور ذاته راودني في تركيا.

استقبلتني نظرات والدي الصامتة في المطار، يقول محمد عبد الباري: «بعض الصواب يعيش في الخطأ» وأقولها بتصرف: «بعض الكلام يعيش في الصمت».

لقد كان شاردًا على غير العادة، وحين تدافع الكلام على عتبة فمه نطق: «بكيف..» فأنقذتُ أجزاء السؤال المبتورة وأجبت: «أمي وكنعان وياسين بخير».

- لم أقصد ذلك، قالها وهو يرمقني بنظرةٍ حادّة

- إذًا ما الذي كنت تقصده؟

- كيف كان يبدو كنعان؟ يقولها وهو يدّعي مسح جبينه

بأكمامه، غير أن دمعةً أُطلق سراحها بللت خدّه.

- رجلٌ يبدو أنه في الثلاثين من عمره لكن والدتي أقسمت مرات كثيرة على أنه اقترب من الأربعين.

- أعني، هل تحبّه؟

- أجبتُه بسؤال آخر: هل تحبها؟

عاد الصمت يخيّم بيننا، بدا متوترًا، أخرج أقراصًا من علاجه الذي ظن واهمًا لسنواتٍ أنه الوحيد القادر على تحسين حياته، في الغالب نحن من نصنع عبوديتنا ونمنح الأشياء القدرة على التحكم بنا.

لا يولد القيد قيدًا ما لم تمنحه الحق في تكبيلك.

عدتُ إلى المنزل بترحيبٍ حار من نورة، حملتني في أحضانها وسرعان ما قادتني إلى غرفتي، كانت تتحدّث بسرعة، عن والدي، عن الطقس في الرياض، عن جدي، أخذت تحرّك يديها كطفلة، هذا ما أكّد لي أن هناك خطبًا ما.

- نورة ما الذي يحدث؟ أسألها مقاطعة

- لم أفهم؟

- أعني أنك تتحدّثين بشكلٍ مهول، تبتلعين الكلمات، تحرّكين يديك وجبينك يتصبب عرقًا!

- زهراء هاتف مشعل مغلق منذ أيام، وأنا قلقة

- لا داعي لكل هذا القلق، لا بد أن هاتفه تعطّل، أجيبها

وكل شكوكي تجاه مشعل تحوّلت ليقينٍ كنتُ أدعو الله أن لا تكشفه ملامحي.

- تنهَّدت مطولًا وهي تسأل: ماذا عن هاتف منزلهم هل تعطل كذلك؟

أعرف نورة جيدًا، لم تكن يومًا من النساء الصبورات اللواتي يحبّذن الانتظار، لكنها ودون حولٍ منها ولا قوّة تجد نفسها الآن تنتظره!

إن الحُب الذي لا يغيّر قناعاتك ليس حبًّا، كنتُ أجهل أسباب الدهشة التي تحملها نورة تجاه مشعل، حتى أحببتُ ماجد.

فأن تراه مدهشًا عندما يكون كذلك هذا أمرٌ طبيعي، الحُب هو أن تدهشك طبيعته.

- لا بد أنك متعبة زهراء، سأنام الليلة عندك، قالتها وهي تطفئ الضوء.

(13)

رغبته في المُضي نحوها كانت تشبه تمامًا رغبة طفل في ممارسة خطواته الأولى لكسر مزهرية.

استيقظتُ وأنا أتأمل نورة في الجانب الآخر من السرير، كان الليل قد طُبع أسفل عينيها وهي في انتظار الصباح الذي سيطل حاملًا مشعل معه، بينما كنتُ أشعر بصداعٍ يكاد يهشّم عظام جمجمتي.

هاتفي يومض، رسالةٌ نصية من ماجد:

- هل يمكنني الاتصال بك؟

- عذرًا ماجد، أنا متعبة اليوم

- ماذا حل بك؟

- آلامٌ في الرأس، لا تقلق سأتناول أقراصًا من البنادول

- جيد، ابعثي لي رسالةً في حال شعرتِ بالتحسن

يداي بالكاد امتدّتا إلى الدرج المجاور، شعرتُ بالدماء تتدفق في أوردتي دفعةً واحدة، ابتلعتُ الأقراص وعدت إلى النوم، فما هي إلَّا دقائق غرقتُ بها في الأحلام حتى جدفت نورة بصوتها قائلة:

- زهراء! زهراء!

جفنٌ واحد كان قد هزمه النعاس، أما الآخر فسلّم نفسه لأوامر نورة.

- زهراء، مشعل يريد التحدث معي في مكالمة، وجهًا لوجه، أتفهمين؟

- فيديو يا نورة

- نعم إنه كذلك، «لا بد وأنه قد أخبر والدته بشأني»، تقولها وهي تنظر إلى السقف وعيناها في اتساع، بينما كانت تداعب الأرض بقدميها كراقصة باليه.

- نورة أنا متعبة وبالكاد.. قاطعتني قائلة:

- لا بأس نامي الآن لا بد أنك متعبة، سأوافيك بالأحداث أعدك..

وثبَت على الفراش، رفعت شعرها عاليًا وهي تبتسم للكاميرا الأمامية، دقائقُ من الانتظار أهدرت في الرنين، وها هو مشعل يظهر أخيرًا.

بعد برهةٍ من الصمت، رفعت يدها ترحيبًا به وهي تَثنيها وترفعها تارة، بينما وضع يده هو الآخر على امتلاء الشاشة، لا بد وأنه أراد أن يمهد لها عملية حجبٍ ستحدث في الأيام القادمة.

- بدت ملامح التوتر على نورة، استمرت في الضحك بشكلٍ غريب، نضحك.. كمحاولةٍ أخيرةٍ للبكاء.

- نورة سأكون صريحًا معك هذه المرة

- ماذا بك؟ أنا أعلم أنك لست على ما يرام، لا بد وأنك عدت لتدخين السجائر من جديد أليس كذلك؟

- اشتقتُ إليك وحسب.

أوقفت نورة غير قاصدةٍ قنبلةً كانت على وشك الانفجار، وكما يحدث في الأفلام غالبًا، يقطع الممثل السلك بينما هو على يقينٍ أن أحدهم سيتسبب بلقاء حتفه، وفجأة.. ينجو!

بينما كُنت أستمع إلى مشعل وفاهه محشوٌّ بالكلمات، كسيلٍ قوي أراد سدّه بحجة «الاشتياق»، ألا تعلمُ أن جميع العُشّاق غرقى؟

إيقافٌ مؤقت للحرب لا سلام أبديّ، هكذا يسمُّونها هُدنة، كان مشعل يُهادن نورة.

الكثير من كلمات الغزل، سردٌ مفصّل للأحداث المهمة وغير المهمة، ثم انتهت المكالمة.

توجّهت نورة للمطبخ لإعداد الإفطار، بينما كنتُ أفكّر في قلبها الصغير، ماذا لو تركها مشعل دون سابق إنذار؟ ثم ما الذي أراد مصارحتها به؟

هاتف نورة يومض، رسالةٌ واحدة كانت قد أجابت عن كل ذلك..

دفعني الفضول لإلقاء نظرةٍ على هاتف نورة، ربّما منحتُ الرسالة نظري يومها حتى أحمي نورة من إصابةٍ بالعمى كانت وشيكة..

فتحتُ الرسالة:

«كانت الحياةُ بمثابةِ عقابٍ صارمٍ لي اضطررتُ إلى دفع ثمنه

وأنا مثقلٌ بالديون يا نورة، وحين شعرتُ بأن علاقتنا ستحملني مزيدًا من الديون أردت الابتعاد، كانت جذوة الحُب تزداد اشتعالًا، وكنتُ خائفًا من الاستمرار في طريقٍ كانت قد حُسمت نتائجه، لكنك لم تكلّي أو تملّي للحظة، هذا ما جعل الأمور تزداد سوءًا، لِمَ كنتِ تصرّين على تعقيد الأمور رغم معرفتك المسبقة بأن ما بيننا مستحيل؟ إن الأمر أشبه بسَلك طريقٍ ومعاودة السير فيه مجددًا، وجهك البريء، ابتسامتك الرقيقة، نبرتك في القلق والغيرة، رسائلك الطويلة، ما الذي كنتِ تظنينه؟ أن أوجّه سهامي نحوك دون أن تؤلمني أقواسي؟ كنتُ أُفضّل أن أموت كمدًا على أن أخبرك أن والدتي لم ترغب بك، كنتُ أضمر أكثر مما أبوح، وأنتظر الفرصة لأقول إن «بثينة» ابنة عمّي تنتظرني في الجانب الآخر من القصة، لم أستطع أن أجثو على ركبتيّ باكيًا لأخبرك أن علاقتنا بدأت في الخفوت شيئًا فشيئًا لأنك كنتِ ستمنحينني يدك ككل مرة، تهوّنين عليّ «مصيبتك»، وتعيدين إشعالي، إنني أكتب إليك الآن وأنا أريد التحول لشجرة، لظلٍّ ممتد، لأي شيء عدا أن أكون أنا، أريد أن أنهي كل هذا، بأخف الطرق وطأةً».

- المحب جدًّا، مشعل.

شعرتُ بخدرٍ في قدميّ وجمودٍ في عقلي، شيءٌ ما أصاب قلبي، صاعقةٌ ربما، الدموع حُبست في بؤرتي، سندت ظهري على الحائط، رفعت الشاشة فوجدت رسالة نورة التي سبقت رسالته هذه، لم أكن قادرة على منع نفسي من قراءتها:

«العزيز جدًّا: مشعل..

مضت أربعةُ أيامٍ على غير العادة، فرسائلك لم تطرق بابي.

«لا أحد يطرق الأبواب المشرّعةً على الدوام»، هكذا تقول زهراء، أعتقدُ أنها تقصد الأبواب التي تملك حقها في بلع المفتاح أو تقيئه، هذا النوع من «اتخاذ القرارات» الذي لا أجيده يثير ريبتي، ولكن ماذا لو كانت تلك الأبواب مكسورة الأقفال يا مشعل؟

إنني أتفهم جيدًا حاجة المرء لأن يُحِب ويُحَب، أن تتحوّل المفردة إلى جمع، ثم تعود مُفردةً تحمل في باطنها اثنين، أعني، تلك النبرة الحانية حين تسأل أحد العشّاق فيجيب بلسان حبيبته.

لكننا يا مشعل لسنا وحدنا، وهذا هو الأسوأ، أعني أن «الآخرين» لهم الحق الكامل في وأد ما كنّا ننتظر ولادته منذ سنين.

هنا نَحْنُ لا نُحِبُّ كفردين اثنين تتسنى لهما الفرصةُ في إكمال علاقةٍ طبيعية دون تشوّه، فالمجتمع يُحب معنا، ولكنه في الغالب دائمًا ما يكره.

إن ما يخفف تلك الهيمنة المجتمعية هو المواجهة المستمرة، المقاومة والتضحيات في سبيل إنقاذ العلاقة.

لكنني هنا أحارب وحدي، وأعيد بناء ما تهدمه أنت بداخلي من جديد.

إنني أشعر بأصابع الاتهام على جبيني كلما حادثتك أسفل بطانيتي، صوتٌ يتسلّل إلى سمّاعتي كلما هاتفتك.

أنت لا تعلم كم يكلّفني هذا الحُب، الرسائل الخفية التي أكتبها، وأصابعي التي تمحوها في الجانب الآخر، الصوت الذي يصدح في عقلي ويقول: «ماذا لو علموا بشأنه يا نورة؟» الكوابيس التي تحمل ملامحهم الغاضبة، والخوف، كل هذا الخوف الذي يدفعني نحوك بشكلٍ أكبر.

أنا أحبك، بكل القلق الذي يحمله الضحايا في صدورهم، اليقين الذي يؤكد لهم حتمية موتهم، إلا أنهم يغرقون فيه أكثر.

أحبك بينما يدُ العادات والتقاليد تغرس خناجرها في ظهري، وأنت في الجهة الأخرى تضع مزيدًا من الملح على جرحي، ترتدي الغياب، لأسابيع، لأشهر، ثم تعود لتتعرّى من كل مشاعر الحُب تجاهي دفعةً واحدة، تطالبني بالتماسك والصبر، بينما تسمح لذاتك بالانهيار التام أمامي، بإطلاق الشتائم، بتدخين السجائر ورفع الموسيقى.

فإن كنت تخالني جبلًا فأنا لستُ كذلك، وما زلت أنتظرك.

نورة، ٢:٥١ صباحًا | الرياض.

أغلقتُ الهاتف، فإذا بنورة تطرق الباب.

- ها أنتِ ذِي مستيقظة، الإفطار جاهز، مهلًا لِمَ وجهك شاحب؟ هل تريدين الذهاب إلى الطبيب؟

الأصوات من حولي تضاءلت فجأة، وملامحي باتت تفضحني.

راحت تمرّر يدها على جبيني، تتحسّسه

- «إن حرارتك مرتفعة، يجب عليّ الاتصال بأحدهم للذهاب إلى الطبيب فورًا»

هل أحذف الرسالة؟ لكنّها وجعٌ لا بدّ منه! جل ما كان يضج به عقلي هو الطريقة المناسبة لإيصال طعنةٍ كهذه، تبقى الطعنة حادّة مهما اختلفت طُرقها، إنها تمزّق أحشاء المرء، هذا ما هو متعارفٌ عليه، قد ينجو، وغالبًا ما يموت.

(14)

وجهي كذبة وملامحك حقيقتي

في سبيل الحب نبذل كل شيء، حتى لو كلفنا ذلك آخر رغبتنا في الحياة. إنه أكثر المشاعر تعقيدًا ولكنه في الوقت عينه يتسم بالبساطة، هل تعتقد أن كل الذين دخلوا الحب من أوسع أبوابه أو أضيق فسحة في نوافذه فعلوا ذلك بدافع الفضول؟

لست على يقين تام بأن هذا ما حصل بين نورة ومشعل لكنني أعلم أن الدافع الأساسي بيني وبين ماجد كان فضولي، لو لم أركض خلف تلك الرغبة الملحّة بتجربة شعور كهذا لما عرفت سبب حزن والدي، ولا عبوس الشيخ محمد، ولم أكن أيضًا لأفهم رغبة نورة بالإمساك بحب يتسرب بين أضلعها!

هذا الغموض الذي يلتف حول الحب يجعلك تفهم نفسك بصورة أكبر، لأن الحب ببساطة يقوم بتعريتك.

حين انتهينا أنا ونورة من تناول الغداء جلسنا نشاهد التلفاز من مسافة لطالما حذرنا منها والدي، تلك المسافة التي تظن بها أنك ستقترب من شخصيات الفيلم حد الدخول إلى عالمهم، لقد شاهدنا هذا الفيلم عشرات المرات لكن نورة لا تشعر بالملل أبدًا من رومانسيته المبتذلة، كنا دائمًا نتصارع على جهاز التحكم لكنني اليوم منحتها فرصة مشاهدة فيلمها المفضل فلربما كانت هذه هي المرة الأخيرة!

بالنسبة لنورة فإن حياتها كانت أسهل بكثير من حياتي، أعلم

أن والدها كان قاسيًا في أوقات كثيرة لكنها حظيت بطفولة مليئة بالصبيان الذين يحبونها، على عكسي تمامًا. لذا فلم يكن من الصعب وقوع مشعل في شباكها، جمالها لن يتجادل عليه اثنان، لقد أخبرتني مرة أن مشعل لم يقوَ أبدًا على إطالة النظر في عينيها، حين نظرت إليها وهي تشاهد الفيلم بعينيها المتلألئتين أدركت تمامًا ما الذي كان يرمي إليه ذلك الأحمق.

في أعماقي أعلم أنها تستحق شابًّا أفضل منه، فخالد ابن عمي عبد الرحمن كان قد تقدم لخطبتها أكثر من مرة لكنها كانت ترفض وتحتمي بجدها الذي دافع عنها بشراسة، لقد ورثت نورة ملامح جدتها، لهذا كان يقفز قلب الشيخ محمد فرحًا حين تطل عليه.

لم أتعلم يومًا كيف أكسر الأشياء، لقد كنت دائمًا من النوع المحافظ الذي يضع أشياءه التي لا قيمة لها في علبة هدايا أسفل سريري، كانت نورة تتفاجأ في كل مرة أُخرِج فيها شيئًا من علبتي، دبوس زينتها الذي أهدتني إياه حين جرحتُ ركبتي، الرسالة التي كتبتها لي بعد أن تركتُ دراستي، الحجر الذي حاولنا إشعال النار به، الصدَفَة التي نسمع من خلالها صوت الموج، الإناء الخزفي الذي كسرناه في منزلهم والكثير الكثير من الذكريات بيننا..

أما هي فلم تكن من النوع ذاته، كانت تستند علاقتها بالأشياء إلى سلسلة من الخيانات، فهي تريدها بشدة وبعد أن تحصل عليها سرعان ما تشعر بالملل تجاهها.

صارحتني مرة حين سألتها عما إذا كانت تفضل الموت على

فقدان ذاكرتها، فأجابت بأنها ستختار النسيان ببساطة، بل لو قُدر لها أن تستيقظ ناسية كل الوجوه التي تعرفها فقد تحققت واحدة من أهم أمنياتها، لقد رغبت أن تحيا حياة جديدة لا تحتفظ فيها بأي ذكرى عن أي شخص، حياة لا تمتلك فيها سجل حياة أحدهم وتحكم عليه من خلاله، أذكر كم غضبت ذلك اليوم لأنها لم تخبرني باختيارها لي كجزء لتحتفظ به في ذاكرتها، فضحِكَت عليّ يومها وقالت ببهجة:

- سيكون لك متسع أكبر في ذاكرتي الجديدة.

لم أمتلك حياة تستحق التذكر على مختلف الأصعدة، لكن الموت كان وقعه أخف وطأة من النسيان، أريد أن أتذكر كل ما مررت به، فأنا لا أعرف كيف سأكون أنا دون هذه الذكريات والتجارب!

ضممتُ ركبتيّ إلى صدري وشعرت بخدر يمتد لأطرافي وأنا أشاهد الحبيبين يتعانقان في جو ماطر ويضحكان كأنهما وُلدا على هذه الحال!

هناك ابتسامة سرقت شفاه نورة من أسنانها، كانت تعض شفاهها طوال الفيلم، لقد اعتادت أن تفعل ذلك حين يسيطر عليها التوتر، دون إذنٍ مني خرجت دمعة ووجدت طريقًا لها على أكمامي. إنها مهمة شاقة حقًّا أن أنقل أخبارًا كهذه لنورة، لكنها قوية وستنسى كما أرادت دائمًا أن تفعل – هكذا طمأنت نفسي - وجعٌ كهذا هو كرصاصة عليك أن تراعي إطلاقها في منطقة لا تقتلك.

قبل نهاية الفيلم بدقائق ناديتها: نورة..

دون أن تلتفت لي ردت: نعم

حاولت أن أحمل الموضوع لها برقة كافية فسألتها بسذاجة:

- هل تتذكرين حين أخبرتك إن كنتِ تفضلين الموت على النسيان؟

أجابت:

- نعم أتذكر

سألتها مجددًا:

- هل ما زلتِ تفضلين النسيان؟

تنهدت ثم قالت:

- نعم

بدأت أفرقع أصابعي بطريقة مثيرة للريبة ثم قلت:

- نورة، أنتِ ومشعل ليس لحبكما أي مستقبل.

أجابت:

- أعلم

صرخت فجأة:

- لماذا؟

أجابت:

- لأن الأمر خارجٌ عن سيطرتي تمامًا

احمرّ وجهي وبدأت نبرتي تصبح أكثر جدية ثم استدركت تعليلها قائلة:

- لأنك لا تريدين، إن الإرادة هي التي تحول بين الإنسان القوي والضعيف، وأنتِ يا نورة قد مررتِ بما يكفي من الصعاب كي تصبحي شخصًا يعول عليه في أصعب الظروف والمواقف.

هزت رأسها متسائلة:

- زهراء، أهناك خطبٌ ما؟

أجبت:

- نعم يا نورة، هناك مشعل الذي أنهى علاقته بك صباح اليوم لأنه سيتزوج ابنة عمه، إنه السيناريو الشرقي المعتاد، لا شيء يشبه أفلامك الرومانسية المبتذلة، كل حب محكوم عليه مسبقًا بالإعدام، الحب هنا يا نورة قفص وأنتِ طير..

سألت:

- كيف أخبَرَكِ ذلك؟

أجبت:

- لا يهم كيف، المهم أن تنسيه

بدأت تصرخ بطريقة مخيفة وتتحدث بكلام غير مفهوم، أشارت لي أكثر من مرة وقالت: أنتِ تكذبين، مشعل لن يفعل

ذلك.

حملتُ هاتفي وقرأت رسالته لها بعد أن أخبرتها أني حذفتها من هاتفها، لم تصدق أنه كتب رسالة كهذه لها، لقد ظنت أني اختلقت الأمر برمته.

لم أقوَ على حبس دموعي وببرودة طبيب يحمل خبر وفاة مريضه أخبرتها:

- مشعل لا يريدك، حتى لو أقسم على حبك ووشم اسمك على صدره فإنه كاذب، سيتزوج ابنة عمه وأنتِ ستجدين شخصًا يستحق حبك.

ارتدت نورة عباءتها واتجهت نحو الباب وأنا أشد طرف عباءتها وأصرخ:

- انسيه، أرجوك انسيه.

كمن حاول توديعي بأقل الطرق ألمًا قالت:

- القلب لا ينسى..

(15)

القلق الذي عليك أن تحمله ليس من الأشياء التي تركض منها، بل من تلك التي تركض خلفها.

يومٌ آخر لا تقلّ فيه رغبتي عن بقاء في السرير وحسب، أذكر حين زرتُ (غونيش) في تركيا، كانت تصف ابنها كنعان بنومه المفرط في سنواتٍ مضت، حتى أردف هو قائلًا: «في الحقيقة لم يكن لديّ في تلك المرحلة ما يحفّزني للاستيقاظ، كل صباحات العالم لم يكن بوسعها انتشال العتمة من صدري».

ولكن ها هو ذا، منذ ارتباطه بوالدتي وكأنه يحمل الصباحات معه أينما حل، هذا ما ساهم في خلق سؤالٍ جديد في ذهني، ماذا لو كنّا نحمل الضوء في داخلنا منذ الولادة، هل كنّا سنشعر بالحب؟ أعتقد أن الحب يحدث عند تضادّ الأشياء من حولنا، هذا ما يعني أننا ولدنا في الأصل محمّلين بالعتمة، وحده الحب من يقوم بإشعالنا، وما أن ينتهي حتى نتنبّه إلى أنه تركنا رمادًا، هذا ما يفسّر كلمة «الانطفاء».

هل يعقل أنني انطفأت بعد كل المرّات التي شعرتُ بها أنني في ذروة الحب مع ماجد، إن كان لا، فلمَ استيقظت ورغبات كنعان في عدم مفارقة السرير باتت محشورة في جوفي؟ هل يمنحنا الحُب أسبابًا لمخالفة العادات؟ أم أنه يجعلنا نمارس «العادات» بشكلٍ أكثر استثنائية؟

توقّفتُ عند هذا القدر من الأسئلة وبينما كنتُ في طريقي لغسل وجهي صادفتُ والدي، تحاشيتُ النظر إليه، ثم ذهبتُ

لإعداد الإفطار، سحب الكرسيّ الخشبي وجلس، راح يراقبني وأنا أكسر البيض، كمن يشاهد عرضًا مسرحيًّا دون انقطاع، لم يتوقف عن النظر إلي دقيقةً واحدة وهذا ما زاد من ريبتي!

قدّمت البيض على طبقٍ خزفي، أرفقتُه بكوبٍ من الشاي الأحمر، وعلى جانبه وضعتُ الزيتون الأسود، هممتُ بالعودة لغرفتي فإذا بي أسمعه ينادي:

- «زهراء، أريد التحدث معك».

سألت والقلق يهز أطرافي كمن ارتكب جريمة ما:

- هل من خطبٍ ما؟

هكذا وجّهت سؤالي على غير العادة، فأنا لم أملك قط رفاهية السؤال كالاعتراض بـ «لماذا» أو حتى الرفض بـ «لا»، ولا أذكر أنني قد حصلتُ على الحق في اتخاذ القرار، إن الذين عاشوا في الحرمان لسنوات طويلة تخيفهم لحظات التحرر البسيطة.

- رفع رأسه ونظر إليّ ثم قال: لا وجود لأي خطب، لكنني أريد أن أحاورك في أمر ما.

الحوار في اللغة يعني إنصات الطرفين بعضهما لبعض، وتقبّل وجهات النظر المختلفة، أن يتحدّث معي والدي بعد كل تلك السنين الطويلة من حظر التجوّل وفرض القرارات واصفًا حديثه معي بـ «الحوار» كان أمرًا مثيرًا للقلق.

بعد انتهائه من الإفطار سمعتُ نداءه، توجّهت إلى غرفته فإذا

به يشير إلى المساحة الفارغة بجانبه لكي أجلس بها.

راح يفتّش في الأدراج، بدا وكأنه يبحثُ عن شيءٍ ما بالغ الأهمية، ثم أخرج صندوقًا ذهبي اللون كان الصدأ قد كساه من الجوانب.

أخرج من جوفه رسائل كثيرة، حتى ظننتُ لوهلةٍ أن ذاك الصندوق هو بريدٌ متنقّل، ابتلع والدي غصّةً يبدو أنها قد جرحت حنجرته من فرط حدّتها لذا خرج صوته مبحوحًا وهو يقول:

- كنا سنخلّد قصّة حبّنا هذه أقسم لك، لكن والدي، أنهى القصّة دون أن أنال شرف كتابة الخاتمة

أخذت ظرفًا، أخرجتُ الرسالة الأولى التي تقول:

«سأنتظرُكَ عند عتبة باب المدرسة، لوّح لي سأراك قبل أن يأتي والدي».

كان والدي يتأمل ملامحي التي اختلطت بالدهشة والحزن، بصوتٍ مهزومٍ علّق:

- عندما كانت لا تزال ترتاد المدرسة الثانوية، كنّا نلتقي عند عتبة الباب، ألوّح لها فيتورّد وجهها وتبتسم، ورغم أننا كنا نسترق النظرات لدقائق كان كلٌّ منّا يمضي في طريقه بعدها، غير أنه كان قد نسي الآخر بداخله.

- هل انتهى الأمر إذًا؟

- إن الحب يا عزيزتي لا يُمكن أن يُحال إلى ذكريات إلا في

حالةٍ واحدة وهي الموت، يقول محمود درويش: «حين ينتهي الحب، أدرك أنه لم يكن حبًّا، الحب لا بد أن يُعاش، لا أن يتذكّر»، لقد عشتُ مع ذكرياتها، بينما عاشت هي مع رجلٍ آخر.

دق جرس بيتنا، أعلم سلفًا أنه جدي، كنتُ مشحونةً بالطاقات السلبية، رأسي مليءُ بكل التساؤلات حول جدي الذي بقي واقفًا كمظلةٍ تستنكر على السماء حق الانهمار، ظننتُ أنني ما أن أفتح الباب سأبصق في وجهه نيابة عن كل الكلام الذي لم أبح به، خرجتُ من غرفة والدي وتوجّهت لفتح الباب، استقبلني بجبينٍ مقطّب ونظرةٍ حادة، قلّما كان يبتسم جدّي أو يضحك، هذا ما ساهم في نفور الآخرين منه، أسند ظهره على الأريكة وطلب مني أن أجلب له كأس ماء، كنتُ أفكّر وقتها في التحدث إليه، فكرةٌ كهذه تبدو مجنونة في ظل معرفتي بطباعه السيئة ولسانه السليط.

استجمعتُ قواي وعزمتُ أمري في مواجهته، تُعذّب الضحية مرّتين، مرةً حين يُمارس عليها الظلم، ومرةً في كتمان الظلم وعدم الإفصاح عنه، مرةٌ واحدة من الظلم المُمارس كانت تكفي، لم أشأ أن أعذّب نفسي للمرةِ الثانية، لذا توجّهت نحوه، قدّمت له الكأس، وجلستُ بمحاذاته، لم يعرني انتباهًا، بينما كان والدي لا يزال في غرفته.

أخذ جهاز التحكم وراح يقلّب في القنوات، بينما كنتُ أبحث عن طريقةٍ مناسبة لبدء حوارٍ معه، فإذا به ينتقي قناة «ناشيونال جيوغرافيك» المعنيّة بالعديد من الأمور من أهمها

الحياة الحيوانية، كان المشهد يشير إلى فيلٍ أصيبت زوجته أثناء رحلةٍ بريّة لأحد الصيادين فلم تستطع إكمال المسير معهم وبقيت طريحة الأرض، فإذا به يجلس بجانبها ويبكي، بينما أكمل القطيع مسيره، وبعد ساعاتٍ قليلة وجدوا جثّتين من أزواج الفيلة، لقد قررا الموت معًا كأن الحياة لا معنى لها دون الآخر!

شعرتُ حينها أن هذا المشهد هو فرصتي الملائمة وعلي أن أنتهزها، فقلتُ معلّقةً:

- مات الفيل يا جدي من فرط حزنه على زوجته، حتى إنه لم يكترث لملامة «القطيع» عليه لاحقًا، لأنه كان على علمٍ باستحالة عيشه منفصلًا عنها.

- على الفيل أن يمضي قدمًا يا زهراء، فبعض إناث الفيلة لا تستحق تضحيةً كهذه.

- ما هو مفهوم الاستحقاق يا جدي؟ هل نطلقه على التضحيات كلها شريطة أن تتناسب الأعراق والأجناس والأوطان؟

صمتَ لبرهةٍ من الوقت، ثم أردف قائلًا:

- كان على والدتك استيعاب حقيقة أن ارتباطها بابني أمرٌ مستحيل لوجود الفوارق الهائلة بينهما.

حبستُ دمعةً كانت وشيكة ثم قلت:

- ما غاب عنك يا جدي العزيز، أن والدتي كانت ابنة تاجرٍ

في الشام، في حين أن ابنك كان يعمل لديه.

- تفهمين قصدي جيدًا يا زهراء، أنا لم أقصد الحالة المادية أو المكانة الاجتماعية.

- وحين اتخذت قرارك بذلك، لم تضع في عين الاعتبار وجود أطرافٍ أخرى كضحايا، يدفعون ثمن ذنب لا يد لهم فيه!

بطريقةٍ مفاجئة اقترب جدّي مني، ثم قبّل جبيني قائلًا:

- أرجوك تفهّمي، لم أكن الجاني الوحيد في هذه العلاقة، كان خلفي مجموعة جناة أصرّوا على إتمام هذه الجريمة بالانفصال، لقد توقّفت عن المحاولة يا صغيرتي، لأن المحاولة في أمرٍ كهذا تجعل مني شخصًا سيئًا في نظرهم يحارب مصلحة القبيلة ولا يكترث للأعراف.

قال كلماته تلك ثم مضى، يعلمُ أنني لن أتمكّن من مجاراته، بينما حياتي كانت تبدو كعدّاء يواصل الركض في حين أنه لا وجود لخطّ نهاية بالأصل.

(16)

المبالغة في النسيان تذكّر

ذهبتُ لزيارة نورة، إنها المرة الأولى التي أذهب لمنزلها بعد سنوات طويلة بسبب الفجوات العائلية التي تحول بيننا، طرقتُ الباب لمرّات عديدة، وقفتُ على عتبته لفترةٍ طويلة، لا أحد يجيب، خمّنت أنها قد تكون نائمة، لذا عدتُ أدراجي.

بينما أنا في طريقي كان صوتُ نورة يصدح في عقلي، كيف ستتصرّف نورة في موقفٍ كهذا؟ لا بدّ وأنها كانت ستبعثُ رسالةً لمشعل رغمًا عن أنف الظروف، وهكذا خطر نصّ رسالتها في ذهني:

العزيز مشعل:

زهراء في الخارج تطرق الباب لكنني لم أفتحه، هل تظن أن هذا سيؤثر في علاقتي بها؟ أعني هذا النوع من طرق الأبواب المغلقة أنت تفهمه جيدًا، أو ربما لا تفعل، لأنه لم يحدث وأغلقت الباب في وجهك، كنتُ أتركه مواربًا لدخول الفرص بيننا.

حتى عندما تأخرت الفرص في الوصول، ظننتُ أن الباب لم يكُن مواربًا بما يكفي، وخمّنتُ أن حجم الفرصة هذه المرة مهولٌ لئلّا تتمكّن من اجتياز الباب، ففتحتُه بأكمله، وانتظرتك.

إنني أحدّق في السقف وأنا أكتب إليك، أستطيع القول إنني

تمكّنت من استيعاب فراقنا، أو ربما لم أفعل، وإلا فلمَ أقوم بكتابة هذا الهراء لك؟ كنتُ سأرسل هذه الرسالة أيضًا، لولا أن هاتفك لم يعد متاحًا، هل غيّرت رقمك؟ أعتقد أنك نسيت أن تخبرني بذلك، لكنني على يقينٍ أنك سترسل لي في صباح الغد من رقمِك الجديد، هل حقًّا ستفعل؟

لا بد وأنك منهمكٌ في العمل، أو ربّما متطلّبات بثينة لتجهيز الزفاف كثيرة، دعنا من هذا، أتذكرني؟

أنا التي غنّت معك وأنت في طريقك للسفر إلى مدينة جدة أغنية طلال مدّاح: «أرفض المسافة، والسور، والباب، والحارس»، حبًّا في الله قل لي إنك تفعل، فصوت صلوات والدتك فجر الثلاثاء لم يغب عن ذهني، قل لي إنك لم تنسَ إصراري على إيقاظك لمقابلات العمل المهمة، وإنك لا تزال تتذكّر خوفي من حشرةٍ ظهرت فجأةً بينما كنا نتحدّث هاتفيًا في فناء منزلي، أخبرتني أنك ضحكت لتخفّف من حدّة الموقف، ويقل خوفي، أنا الآن خائفة، ولا أضحك، أين أنت؟

أخبرني أنك على بعد شارعٍ واحدٍ من شارعي، وإن فتحت نافذتي فسألقاك، مازحني كما كنت تفعل دائمًا وألقِ على مسمعي النكات السخيفة، سأضحك، اصمت إن لم تجد ما نتحدث بشأنه، أعدك أنني سأنصت لصمتك.

الآن أعلم لمَ توقّفت عن التحدث إليّ، لا بد وأنك لم ترفض «المسافة، والسور، والباب، والحارس»، لكنني ما زلتُ أنتظرك.

عُد يا مشعل، لقد تركتُ الباب مواربًا من أجلك.

(17)

كمن يحاول إعادة أشياء لم يحصل عليها قط.

كان الجو رقيقًا وهادئًا ركن أبي سيارته خلف سيارة عمي عبد الرحمن بينما عمي سعيد كان قد ركن سيارته بجانب شجرة.

ترجّل أعمامي الثلاثة من سياراتهم أما أنا فقد سبقتهم جميعًا حين رجوت والدي أن يوقف سيارته كي أكمل طريقي بصحبة هذا المنظر البديع سيرًا على الأقدام.

كنت أسير بمحاذاة ساحل الخليج العربي في المنطقة الشرقية، وذلك في الساعات الأولى من فجر يوم الجمعة.

كانت هذه هي زيارتي الأولى لها وقد ظلت عالقة في ذاكرتي طوال الوقت، لم أكترث لنظرات الاستهجان التي رمقتني بها موضي حين ركضتُ سريعًا نحو البحر كمن كان مغتربًا عن موطنه ووجد أخيرًا مكانًا ينتمي إليه.

ربما خُلقت من البحر وكنت كائنًا بحريًا، أنام بعينين مفتوحتين ولا يفوتني شيء من الدهشة، لذلك صدقت أنني حورية بحر والعرّافة التي قالت لي بأني سأغرق من فرط الرتابة جعلتني خائفة، فطفوت كباب خشبي ونسيت أن المفتاح يغرق، أحلم بامرأة أنقذتني كانت تمسح على رأسي قبيل كل ليلة وككل الأطفال المغمورين بحب أمهاتهم أطلب قصة قصيرة وأنام سريعًا دون أن أعرف النهاية، لا أعرف ما الذي يشعر به البحر لكني سمعته يبكي، ولأنه غارق بدمع أولئك الذين فكروا كثيرًا بالغرق ركض الجميع بلهفة نحو أمواجه، في كل

ليلة ينام البحر من فرط وحدته قال لي ذات يوم بأني أنتمي له والمرأة التي نامت بحب بجانبي كانت دموعه، لهذا استيقظت معظم الوقت وفراشي مبلل.

كان الهواء صافيًا والسماء من فوقي مغضَّنة بسحب وردية، قاطعت نورة هذا الاتصال العميق بيني وبين الكون حين قالت:

- تبدين كالبلهاء.

ضحكت ثم رددت:

- على الأقل أنا أعيش أسعد لحظات حياتي برفقة هذا المنظر الخلاب.

تنهدتُ ثم سألتها:

- كيف حالك؟

أجابت بسرعة كمن يريد إنهاء حوار مع شخص قد قابله للتو:

- الحمد لله.

يبدو أنكِ في عجالة من أمرك، حسنًا ليس علي إجبارك على مرافقتي وتعليمي السباحة - قلت ممازحة -.

ابتسَمَت ابتسامة صفراء ثم سارت بجانبي وذراعاها متشابكتان.

سألتني بسخرية:

- كيف تريدين السباحة وأنتِ تخافين من كل شيء تمامًا كوالدك؟

نظرتُ دون اكتراث إلى الجهة الأخرى وأجبت:

- هناك مرة أولى لكل شيء ثم إني لستُ خائفة كما تزعمين، أنا حذرة ليس إلا.

ضحكَت بصوت عالٍ كمن فقد صوابه ثم سألَت بسخرية أكبر:

- أنتِ؟!

رفعتُ أحد حاجبي استهجانًا وأومأت رأسي بالإيجاب.

ردت:

- لا تعرفين شيئًا عن العالم إلا عبر الكتب السخيفة المخبأة أسفل سريرك ومقاطع اليوتيوب لرحالة يصورون رحلاتهم، تعيشين كل لحظة بسعادة شخص غبي لا يعرف عن الحياة أي شيء، تركضين برغبات عجوز تقدم به العمر نحو الأشياء المتاحة لا المرغوبة لذلك اتصلتِ بماجد ولم تفكري بالتحدث مع أي شخص آخر لا قبله ولا بعده، حتى في اللحظات التي تدّعين بها أنك تحبينه أعلم أنك لا تحملين إلا شعورًا يجب عليك حمله نحوه كمن يجبر نفسه على الاستيقاظ كل صباح لأنه لا يستطيع إكمال يومه نائمًا.

كبتُّ جماح غضبي وأنا أعض على أسناني ثم قلت:

- أعلم أن صدمة مشعل كافية لإحراق كل شيء بداخلك لكن ليس علَيَّ تحمل رائحة احتراقك، عليك المُضي قُدمًا، فاستنقاصك لحياة الآخرين لن يشعرك بالرضا نحو حياتك.

صرخَت بقوة في وجهي وهي تردد:

- أنتِ غبية وساذجة لا تعرفين شيئًا عن الحب والتضحية، كل ما تملكينه هو قصة حب ميتة منذ الولادة، أتمنى أن تموتي من فرط الاعتياد، إنك من شدة سذاجتك لم تعرفي أن الرقم الذي أعطيتك إياه ليس لخطيبك ماجد بل إنه لعبد الله صديق مشعل وقد اتفقت معه على كل شيء.

كانت قطرات من العرق قد سالت إلى عيني فشعرت بحرقة بالغة، لعقت شفتي وأحسست بمزيج من الملح والدمع ولم أتوقف عن الارتجاف أبدًا، تنهدت تنهيدات لا حصر لها كمن نجا للتو من غرق محتمل.

(18)

هل حدث وأجهشت بالبكاء دفعةً واحدة دون توقف، لا إبداءً لردة فعل تجاه الحدث نفسه، إنما من جميع الأحداث التي حُشرت في صدرك ولم تستطع البوح بها؟

حين وصلتُ لغرفة الفندق، تهدّج صوتي بالبكاء وشعرتُ بثقلٍ في أطرافي.

آخر مرةٍ عايشت فيها ألمًا كهذا كانت عندما اكتشفت خطط إرغام جدّي لهجران والدتي لطفلتها الوحيدة، عندها ربّت والدي على كتفي ثم أردف قائلًا:

- إن أول من اكتشف العبرات المؤلمة قال واصفًا إياها: «إنها تشبه الكلمات الثقيلة المعلّقة في سقف حنجرتك، ما أن يتبادر في ذهنك النطق بها تتكوّر وتزاحم فمك، تشعر بأنها تحاصر لوزتيك، ومن هنا يولد ما يُسمّى بالغصة».

في هذه اللحظة تحديدًا، شعرتُ بأن الغصّة وزّعت نفوذها في حلقي بالتساوي، حتّى إني لم أعد قادرةً على الكلام.

تمدّدت على السرير، ثم تلَوَّيت على نفسي، لا بد أن الغصّة هذه المرّة لم تقتصر على حلقي وحسب، أعتقد أنني ابتلعتها من فرط الألم، فغيّرت مسارها وتوجّهت مباشرةً لقلبي.

أمسكتُ هاتفي، الإشعارات تقول بأن مكالمتين من ماجد لم يتم الرد عليهما، ورسالةٌ نصيّة منه كان مفادها:

- أفتقدك.

كنتُ أحاول أن أتمالك أعصابي بينما كنتُ أعضّ على شفتيّ بقوةٍ حد النزيف، وكل محاولاتي في الثّبات زادت من الانهيار.

إننا نمنح الأشياء الحق في خلودها ما أن استمرَرْنا في التفكير بطريقة دفنها، أن تتخلّص من هاجس رسوخ الذكريات بداخلك يعني أن تتخلّص من «التفكير» أولًا في طرقٍ لذلك، النسيان لا يُطلب عَنوة، بل نتفاجأ به نحنُ أبناء الذكريات، فيأتي صباحٌ نحاول التذكّر به ولا نعود قادرين على ذلك، من هنا يأخذ النسيان مفعوله.

نقرتُ على خانة الرسائل، أضفتُ اسم ماجد، ظننتُ أنني سأحدّق في شاشة الهاتف لوقتٍ طويل، فإذا بحشودٍ من الكلمات تتدافع معي منذ أول مرحبًا، برأيي أن الخيبات تحفّزنا لكتابة الرسائل أكثر من السعادة، وعلى قدر إيماني بقدرة الخيبات الهائلة في خلق أصابعَ للشعراء والكُتّاب، بيد أني لم أعرف بعد السّحر الكامن في مقدرتنا على صياغة المآسي أكثر من غيرها.

لربّما يعود السبب الحقيقيّ إلى أن لحظات السعادة تبدو غير قابلة للتقولب أو التشكيل، إنها أشبه بالنسيم البارد الذي يمرّ وجهك وسط نوبة صيفٍ حارقة، ترغب في الإمساك بها بين يديك، فإذا بها تنفلت من الفراغات بين أصابعك، إننا في نشوة سعادتنا قلّما نفكّر في توثيقها، وإن كان لا بد من ذلك، فإننا نقوم بذلك عن طريق الصور، إنما يندر أن نقوم بذلك عن طريق الكتابة.

لذلك أنا أكتب، وكثيرًا ما أشعر برداءة ذلك بعد الانتهاء

منه، أكره الكتابة لأنني أشعر بافتقاري لكثيرٍ من البلاغة عند قراءتي لكتّابٍ قاموا بصياغة ما شعرتُ به مسبقًا، الأفكار تبدو مكرّرة، المشاعر تبدو متشابهة، والخيبات كذلك، أكتب نيابةً عن مقدرتي على الصراخ والرفض واتخاذ القرارات في كثيرٍ من الأحيان.

مرحبًا ماجد أو عبد الله:

ربما لا تعرف شعور المرء حين يشعر بالاستغفال إن الأمر أشبه بالبحث عن قط في الظلام ثم تكتشف أنك كنت وحدك هناك طوال الوقت كل ما كان عليك فعله هو استخدام المصباح الكهربائي، لكن الحب يجعلنا نرغب في رؤية الأشياء كما نريدها لا كما هي عليه، طوال المدة الماضية منحت كل مشاعري لك، تلك التي لم أعلم أساسًا أنها موجودة، يقولون ابحث عن نفسك في ملامح الشخص الذي تحبه، يا ترى كيف يبدو وجهي عليك؟ ثم أتذكر أني لم أسألك أبدًا عن سبب عدم إرسالك صورتك، لأن جل ما كان يهمني وقتها هو أن تخبرني كم أنا جميلة، أن تهمس لي قبل كل ليلة كم تحب عينيّ الخضراوين وشعري الأحمر الباهت، أن تقول لي صباح كل يوم بأن النمش على أنفي هو ما يجعلني مميزة وأن وقتك دوني كساعة معصمي التي توقفت عن العمل، كنت أريد أن أحبني من خلالك، فبعد كل الموت الذي كان يحيط بي شعرتُ لأول مرة أن هذه الحياة تستحق أن تُعاش، لكنني الآن يا ماجد (أقولها هكذا لأن عقلي وقلبي كلاهما ولأول مرة يتفقان على عدم تصديق وجود شخص ثالث يا عبد الله)

كم يعز علي أن أحمل وحدي قبحًا كثيرًا، قبحي الذي لطالما عشت برفقته وقبح ملامحك على وجهي، إنه القبح الذي لا يمكنني انتزاعه لأني ببساطة لا أستطيع رؤيته! يقولون إن الحب أعمى لكني أعلم الآن أن الحب يرى، نحن مَن مشينا في الظلام.

(19)

يخترق الحب قواعد الرياضيات، ألا ترى أن أقصر الطرق فيه هي الملتوية؟

كان الليل ثقيلًا على صدري حتى ظننتُ أن الشمس لن تخلع رداءه بعد اليوم، حظرتُ «ماجد» من جهات الاتصال، وأنا أفعل ذلك تذكّرت، كم تبدو قيمة الإنسان ضئيلةً في عالمٍ من الأرقام.

جميعنا أرقام، اسمك الذي فكّر والدك به مليًّا بينما كنتَ في رحم أمك مستلقيًا غير آبه، المعاني العديدة التي يحملها اسمك، حين بحثَت عنها شقيقتك الكبرى وهي تقول مرّةً بأن اسمك يعني التماسك، ومرةً تقول إنه الهطول، أصبح مجرّد رقمٍ وحسب.

موتك رقمٌ في عدّاد الموتى، حياتك رقمٌ في تعداد السكان، حزنك أيضًا رقم، ألا ترى الطوابير المحتشدة من الحَزانى؟ إنهم ينتظرون شبّاك السعادة منذ زمن ليقصّ لهم تذكرةً نحو الخلاص.

أنت في هاتفِ حبيبتك رقمٌ آخر، ألا تذكر المرّة الأولى التي أعطيتها بها رقمك؟ حين أصبحت مُضافًا في قائمة الأصدقاء، ثم تطوّرت علاقتكما، حين قالت كاعترافٍ لك: «صنعتُ لك قائمةً تخصّك وحدك»، حين سألتَها ببلاهةٍ: ماذا تقصدين؟ وأردفَت: «أنت حبيبي».

جميعنا أرقامٌ، في الهواتف والملفّات، تحصرنا خاناتٌ

ضيّقة وألقاب، وحين تموت تصدر شهادة موتك الواحد فقط، كل تفاصيلك حينها ستكون مدروسةً بعناية، إلا من موتاتك الصغيرة التي خضتها وأنت على قيد الحياة.

وفي شهادة ميلادك ستُضاف كمولودٍ آخر، بصمة قدمك الصغيرة التي سيبتهج بها أقرباؤك لاحقًا، كل تفاصيلك في الولادة أيضًا، عيناك وطولك، إلا عدد المرّات التي ولدتَ بها من جديد، حين قالت لك أحبّك، عندما احتضنتك والدتك، حين تخرّجت من جامعتك، كل تلك الولادات الصغيرة التي شهدتَها رغمًا عن الموت بداخلك.

كان هاتفي لا يزال مقلوبًا على السرير، حين نظرتُ لوجهه فإذا بي أجد العديد من المكالمات الفائتة من نورة، ربّما يعود البعض لا رغبةً بنا إنما طمعًا في الشعور الذي تسنّى لهم عيشه معنا، وفي كثيرٍ من الأحيان يعودون لأننا لمسنا الأجزاء الخامدة بهم وأشعلناها، قد يعودون لأنك أعدتَ تشغيل صوت الضمير بداخلهم ذلك الذي ظنّوا أنهم قد أخرسوه منذ زمن.

زفافي يقترب، بينما عقلي يكتب رسائل رثاءٍ لكل الذين تسبّبوا بهذه المجزرةِ بداخلي، أنّى لي نسيان ماجد الذي سكنت به روح عبد الله؟

فتح أبي باب غرفة الفندق حاملًا معه أكياسًا من البقالة، أخبرته أنني تناولت لوح شوكولاتة «سنيكرز» من الثلاجة الصغيرة وأذكر كم وبّخني حيث كان سعره ضعفي سعره في البقالة لذلك لم يترك لإدارة الفندق فرصة لسرقته، كنت دائمًا أعزو اهتمامه بأشياء كهذه إلى طلاقه، فهو لم يكن بخيلًا على

الإطلاق لكن الفراغ يجعلنا نرى الأشياء الصغيرة أكبر من حجمها!

ملأ الفراغ الذي تركته ألواح السنيكرز بألواح أخرى أقل سعرًا ثم التفت إلي قائلًا: سأنزل إلى الطابق السفلي كي أدخن وأحتسي كوبًا من القهوة هل تريدين الانضمام؟

تأبط جرائده ونزلنا معًا إلى الطابق السفلي، بدأ يحتسي قهوته ببطء بينما يستمتع بقراءة الصحف اليومية لأخبار لا تهمه، وضع نظارة القراءة الخاصة به على مقدمة أنفه ثم سأل:

- زهراء.. هل تعرفين لماذا أقرأ صفحة الوفيات كل يوم؟

سألته بتعجب:

- لماذا؟

أردف بصوتٍ تلوّنه الخيبة:

- بعد أن طلقت والدتك وحملتك معي إلى الرياض كتبت لي والدتك رسالة ما زال هذا السطر منها يؤلمني: «سأقرأ صفحة الوفيات كل يوم وأنا آمل أن أجد اسمك»، لقد قتلتني والدتك بتلك الرسالة ومن يومها وأنا أبحث معها عن اسمي.

أخذ شهيقًا عميقًا وألحقه بزفير أعمق، قام مسرعًا عن كرسيه ثم خرج من الفندق وأشعل سيجارته، لقد حاول جاهدًا أن يحرق قلبه الواحد الذي حمل حبًا كثيرًا، أكثر مما يستطيع العيش معه.

رجع إلى مقعده ومسح نظارته بطرف شماغه، أرجع رأسه

للوراء وتأمل سقف الفندق لثوانٍ كأنه كان يريد استعادة الدمعة التي حاولت الهرب، نظر في عيني ثم قال:

- المعضلة يا زهراء أنك تشبهينها كثيرًا كأنك ابنتها وحدها ولا علاقة لك بي.

استشعرت نبرة الأسف التي جرحت حنجرته حين قال لي هذه العبارة، فتح الزر الأعلى من ثوبه كي يسمح للغصة أن تمر ثم أردف:

- حين أخبرتني أمي لأول مرة بأن جدتي هي أمها لم أكن أرغب في التصديق، حاولت المسكينة جاهدة إقناعي بالأمر لكن الطفل الذي كنت عليه كان أنانيًا لدرجة مخيفة، لم أكن أرغب أن ترتبط أمي بأي شخص آخر سواي ولم أصدق حقيقة أن الأمهات لهن أمهات أيضًا، ربما لأنها كانت عظيمة، أعظم من أن يتحمل أي قلب في هذه الدنيا حزنها ويتشارك معها همومها، لقد كبرتُ على هذا الاعتقاد، لكن الطفل بداخلي ما زال يريد أن يدور كل شيء حوله!

مكالمة بهاتفه أطبقت فم الكلام بيننا، رد سريعًا وكأنه كان يردد على مسامعي حديثًا لا يهتم لرأيي بشأنه.

كان يتحدث إلى الطرف الآخر بطريقة مثيرة للريبة كل أجوبته: نعم، فهمت..

أغلق السماعة ثم قال: لقد كان ماجد يطمئن بشأن تجهيزات العرس.

تنهدت ثم أشحت بناظري إلى الجهة الأخرى وأنا أنتظر أن

يصفعني أحدهم لأتثبت من حقيقة ما أعيشه.

(20)

مزدحمٌ أنا يا الله، أين المخرج؟

رغم صداقاتي الضئيلة والتي تكاد تنعدم إلا من نورة، حظيتُ يومًا بصداقةٍ غريبة مدّتها يومان في الحديقة المجاورة لأحد المستشفيات، بينما كان والدي يُراجع مواعيده، كنتُ أنتظره في الخارج، أذكر أنني لعبتُ يومها مع فتاةٍ مقاربةٍ لي في العمر، وبينما كنّا نلعب فإذا بها تتمدّد على العشب الأخضر وساقاها متلونتان بالندوب، وعلى رقبتها آثار حرقٍ أو ما شابه، غالبًا ما يُثار فضول الأطفال للأحداث التي تبدو «غير منطقيّة» لعقولهم، فالندبة الواحدة تعني تعثرًا عن طريق الخطأ، في رصيفٍ أو شارع، بينما الندوب المتعددة في مكانٍ واحد، تعني أن هناك خطبًا ما.

هذا ما دفعني لسؤالها:

- يارا ما خطب ساقك؟

- والدي يقول إنني سقطتُ بينما كنتُ أركض في مكانٍ ما

- ألا تتذكرين ما حدث؟ ما هذا الذي في رقبتك؟

- لستُ أدري

هكذا انتهى النقاش، «لستُ أدري» اليوم أمرّر هذا الموقف الذي حدث منذ أعوام ومشهد يارا غير المألوف في ذهني، وأنا أفكّر في وقع الإدراك على الإنسان.

لو أنني «لا أدري» وحسب، هكذا ببساطة إزاء كل الحب

الذي حملته في صدري لعبد الله.

لو لم أدرِ عن رحيل والدتي، لو لم تؤرقني كل هذه الأسئلة، لو لم أدرِ عن وجود ابنة عمّ تُدعى نورة، لو قابلتها في الشارع العام عن طريق المصادفة أو الخطأ ولم أتعرّف إليها، لو أكملت المسير فقط، وأنا محمّلةٌ بالكثير من «اللا أدري».

تبدأ معاناة الإنسان غالبًا في إدراكه، من أول صرخةٍ له في وجه العالم بعد ولادته، خروجه من رحمٍ دافئ إلى لقاء وجوه الأطباء والممرضين الباردة، شقيقه الذي يخرج لسانه له ليتثبت من حدّة بصره، مع العلم بأن الرؤية لدى جميع الأطفال الحديثي الولادة تكون ضبابيةً في الأصل.

هنا إدراكٌ آخر، لو أدرك الشقيق ذلك لما أخرج لسانه، لو أدرك الرضيع حجم الصرخات التي سيطلقها لاحقًا لما استنفد الأولى.

ولا أكثر فداحةً من تكالب «الإدراك» عليك دفعةً واحدة.

بينما كنتُ أجهّز لزفافي، أبتاع العطور ومساحيق التجميل، لم تتسنّ لي فرصةٌ لتصنيف الإدراك إزاء الأمور التي حدثت، لذا كنتُ في حالة شرودٍ وجمودٍ مريبة، لستُ سعيدة، لستُ حزينةً كذلك، هذا النوع من التخبّط الذي ينتابك، سيجعلك تكسر مزهرية الورد العتيقة، أو زجاجة العطر التي أهداك إياها صديقك المقرّب، فقط لأن بعوضةً حطّت على قميصك.

بالطبع لم يكن ذنب البعوضة، ولا المزهريّات التي لطالما استفَزّتك زخارفها الكثيرة، والعطر ليس سيئًا، إنما مشاعرك

هي من تعصف بك في كل اتّجاه.

ويا للخيبة، لم أحظَ بفرصة تكسير القناني، أو تمزيق القمصان، بل شعرتُ بالكثير من «اللاشعور».

عزيزي الله:

كنتُ أنوي كتابة هذه الرسالة إليك قبيل يوم زفافي، لكن الأمور ازدادت سوءًا، وأنت رب الأمور الجيدة، أعلم أنك تعلم بشأن هذا الذي سأخبرك إياه من قبل، كيف لا وأنت علّام الغيوب، لكنني أريد كتابته، وحدك تعلم كيف تتحفّز رغبات الكتابة في أولئك الذين لم يتمكّنوا من إطلاق الرصاص على رؤوسهم، وها هم يهرعون بالهرب من الأشياء إليك، يا رب الأشياء، أكتب إليك وأنا أشعر بهذا الذي يُعرف بـ «اللاشعور»، هل حتمًا هذا ما يطلقونه عليه؟ إنني على حافّةٍ من الجنون، حيث لا الاحتفالات ولا الأصدقاء ولا المال يملكون القدرة على جعلي سعيدة أو حزينة، يا رب القلوب أنا لم أعد قادرةً على الشعور بشيءٍ واحدٍ والخوض فيه بكامل قواي الروحية، امنحني قدرةً على الانهمار يا ربّ الغيوم والسحاب والمطر، أريد البكاء، أريده بشدّة، أعلم أنك خلقت هذا العالم ووضعت فيه القوانين لئلّا نتعثر فيه لاحقًا، لكنّ العالم بشع، والبشر هنا لا يتّبعون تلك القوانين، أعلم أن خلقك له أمرٌ قد قُضي، ووحدك تملك الحكمة البالغة في الخلق، لكنني أشعر بتمزّقٍ في روحي، ولا أريد سؤالك بطريقةٍ جازعة بِـ «لماذا؟» فقد وضعت الموازين جيدًا، عزيزي الله إنني بحاجةٍ لبراهين وأدلة، لا على وجودك، فأنا أعلم أنك هنا،

قريب، لقد شعرتُ بك وأنا أحتضن نورة في تلك الليلة، أشعر بك في النسيم، في المطر، حتى في قُبلة غونيش الدافئة، بالمناسبة كيف تبدو قُبلات الأمهات يا الله؟ هل هي دافئةٌ كتلك القبلة؟ لا يهم، أيّها العزيز طمئن قلبي، لا أريد أن أرى إحياءك للموتى، فأنت قادرٌ على ذلك، لقد رأيت جاري الذي كان طريح الفراش حتى عاد ابنه من الغربة فإذا به يعود بكامل صحّته، لقد رأيت ذلك أقسم، أعلم أنك تحيي الميّت فينا، وتُميت الحيّ، يا الله أنت تعلم أن شكوكنا هي خيوطٌ للوصول إلى اليقين التام، وحاشاك أن أشكك بك، لكنني أريد برهانًا واحدًا يدل على أنني ما زلتُ على قيد الحياة وأن هناك في الأفق البعيد أملًا يلوح لي لم تبتر بعد الأيام يده.

(21)

الغضب هو الشعور الذي يسبق الاكتئاب تمامًا كما يفور بركان ثم يمضي عمره خامدًا إلى الأبد.

في ليلة زفافي ارتديت قميصًا طويلًا من الساتان باللون العاجي وغطيتُ المتبقي من جسدي بروب من الشيفون باللون ذاته، كان يتوسطه شريطة عند فتحة الصدر أما أطراف الأكمام فكانت مُزينة بالدانتيل، تخلصت من المشابك الكثيرة العالقة في شعري وقطعة إسفنجية استحقرتُ نفسي طوال الوقت لأنني وافقت مصففة الشعر على وضعها، مسحت المكياج الذي جعلني أقفز من الثامنة عشرة لأغرق في الثلاثين من عمري، لقد كرهت نفسي وأنا أنظر إليها عبر مرآة الفندق وددت حينها لو أبصق عليها ولكنني عوضًا عن ذلك طبعتُ قبلة، حفّزتُ غدتي الدمعية على الانهمار عن طريق نزع الرموش الاصطناعية وفرك عيني بقوة لكن كل ما حصلت عليه هو الدموع اللاإرادية التي تنتج عن المهيجات الخارجية، في داخلي بكاءٌ عاطفي وكل المحفزات موجودة لكن لا دمعةَ تُسكت آلام الروح.

تركت شعري الأحمر ينسدل على كتفي، تذكرت كلام والدي عن الشبه بيني وبين والدتي، جل ما أستطيع رؤيته الآن هو النسخة القبيحة منها.

لم أكن أعلم كيف ستمر تلك الليلة، حدقتُ عبر النافذة التي توسطت جدار الغرفة إلى الأفق، تواقة لأن أكون في مكان

آخر وفي غمرة الصمت الذي يتبع ذلك دخل ماجد إلى الغرفة وهو ينظر إلى الأسفل، وضع شماغه على الطاولة الجانبية ثم استرق بضع نظرات سريعة نحوي، وعلى عجالة أغلق على نفسه باب الحمام وخرج مرتديًا بيجامة رمادية من الساتان مخططة باللون الأسود، دون أن أعي جلستُ على طرف السرير ووجهي نحو النافذة الكبيرة التي أسدلتُ ستائرها السكرية قُبيل جلوسي، أدعو أن ينتهي كل شيء سريعًا كما بدأ، تركت يده وهي تضم برفق خصري وأنفاسه وهي تخترق بدفء مسام بشرتي، أنا لم أوافق على شيء ولم أرفضه، بذلت قصارى جهدي كي أبدو هادئة ورابطة الجأش بينما انفرجت أساريره عن ابتسامة انعقدت على شفتيه، ركضتُ بسرعة إلى الحمام ويدي أسفل بطني، تأملت ببؤسٍ بالغ الجرح الذي تسببَ به، كانت الدماء قد توقفت، لقد بدا كجرح تسبَّبَ به طرف الورقة لإصبعي وأنا التي ظننت أنني سأنزف إلى الموت من شدة ما جرحني الآخرون!

ببلاهة لوحتُ إلى المرأة في المرآة، فردت علي ملوحة على نحو يفتقر إلى المبالاة.

سألتها بخيبة عن إمكانية استعادة ما فقدته، فهزت رأسها هزًّا يوقع الكآبة في النفس.

ملأت البانيو بمياه دافئة واسترخيتُ كما لو أنني ممثلة في فيلم، مددت يدي نحو كأس النبيذ الأحمر الذي تخيلته وتمنيت ليلتها لو كنت ثملة لا أعي شيئًا مما حدث.

طرقَ الباب عدة مرات كأنه كان يريد التحقق من كوني ما

زلت على قيد الحياة، كنت أتأمل وجهي الغارق في الماء وأضحك، لقد بدوت مثيرة للشفقة، أنا التي ظننت أنني أنتمي للبحر الآن أغرق في هذه البقعة الصغيرة من الماء.

أرد نعم بصوت مثقل بالأحزان، سأل بفضول شخصٍ يعرف الإجابة مسبقًا: أنتِ بخير أليس كذلك؟ فطمأنته بِـ: «نعم» أخيرة.

كانت ليلة مليئة بالبلل، عدت بعدها صحراء قاحلة تقع في غرام الصبار ليس لأنه يستحق بل لأنه المتاح!

(22)

حافظ على وجهك، لا ترتدِ ملامح الآخرين.

في صباح اليوم التالي كنا قد توجهنا باكرًا إلى المطار من أجل رحلتنا إلى باريس، كنت أرتدي معطفًا أبيض اللون وأضع على رأسي شالًا أسودَ، بعد رحلة استمرت سبع ساعات وصلنا أخيرًا إلى مطار شارل ديغول، لم ينتقد ماجد طريقة لبسي أو حتى كشفي لبضع شعيرات من مقدمة رأسي، لقد نام معظم الرحلة وقُبيل وصولنا بساعات استيقظ ليسأل المضيفة عن قائمة الطعام، كان حديثه معي لا يتجاوز إلا بضع ابتسامات تبادلناها على استحياء، بالنسبة لي فقد ألهيت نفسي بقراءة المجلة المخبأة في جيب المقعد.

كانت باريس تشبه الحلم تمامًا، في طريقي إلى الفندق تأملت كل المارة كان الجميع متأنقِين وفي غاية الجمال.

علقتُ معطفي وألقيتُ بجسدي المتهالك على السرير، بينما أخرج ماجد من الثلاجة الصغيرة التي عرفتُ فيما بعد أنها تُعرف باسم «الميني بار» زجاجة شراب غازي، هذا ما ظننته في البدء.

حمل كأسينا بيده وباليد الأخرى كان يحمل زجاجة تشبه تمامًا زجاجة شراب «الكاديه الغازي» الذي كنا نحبه كثيرًا أنا ونورة.

جلس عند رأسي ثم غمز سائلًا:

- ما رأيك أن تجربي الليلة؟

سألته:

- ماذا؟

ابتسم ابتسامة ممزوجة بالخبث وقال:

- المشروبات الروحية.

رفعتُ رأسي وسألت بدهشة:

- هل تقصد الخمر؟

ضحك حتى ظننت أنه نسي كيف يُرجع رأسه إلى الأمام ثم قال:

- هذا شراب كحولي يُسمى الكوكتيل، ليس بقوة النبيذ لكنه يعطي شعورًا رائعًا.

سألته:

- رائعًا كالنسيان؟

أجاب بتململ:

- نعم

رفع أحد حاجبيه وهو يُقدم لي كأسًا ثم سأل:

- ها؟

أومأت رأسي إيماءة نابعة من صميم فؤادي ورددت:

- موافقة

لا أذكر سوى أنني استيقظت وأنا برائحة القيء، فمي جاف وآلام في المعدة تكاد تودي بي.

توجهت مباشرة إلى الحمام وملأت البانيو من جديد، غرقتُ هذه المرة لدرجة لم أرجُ بها النجاة، صفعت وجهي عدة مرات وسألت المرأة الغارقة: لماذا؟ لكنها كانت تبتسم بخبث.

فتح أحدهم باب الغرفة، كنت قد انتهيت من تجفيف شعري للتو لذلك انتبهت لدخوله، كان ماجد وأنا التي ظننته غارقًا في نومه.

سألني بفضول:

- كيف تشعرين؟

أجبت:

- لستُ بخير على الإطلاق.

ابتسم وهو يقدم لي فنجانًا من القهوة الداكنة ثم علق:

- كوب الإسبريسو هذا سيساعدك على استجماع قواك.

جلس حول الطاولة الصغيرة المُطلة على النافذة وبدأ يحتسي كوب قهوته برفق، لم أجرؤ على سؤاله عما حدث في الليلة الماضية فمن المؤكد أن منظري كان مثيرًا للسخرية، أخرجتُ معطفي من الدولاب وأنا أردد:

- سأخرج للإفطار

أشار بسبابته مُعلقًا على معطفي:

- لا داعي لارتدائه، الجو حار وأنا لستُ رجل دين، ارتدي فستانًا رائعًا وابتهجي هذا الصباح فنحن في باريس يا زهراء، ثم رفع كأس القهوة نخبًا.

ابتسمتُ بلُطف وعلقت المعطف في الخزانة ووضعت شال رأسي على كتفي، لا أعلم كيف يمكن لشخص لا تعرفه أن يبدد قناعاتك في دقائق، ربما لأني كنت هشة في تلك المرحلة أو ربما لأني اعتدت على تنفيذ الأوامر لا إلقائها، لذا تبددت قناعاتي في أول يوم لي في باريس، لا أعلم كيف تناولت الإفطار ذلك اليوم، لم يكن أحدٌ يحدق بي على الإطلاق لكنني شعرتُ أن كل الموجودين في قاعة الطعام رأوني عارية!

(23)

تتفاقم رغبات الانتحار لدينا حين ندرك الطبيعة الازدواجية التي يعيش بها معظم البشر.

في تمام الساعة التاسعة صباحًا بالتوقيت المحلي لباريس، ضرب شعاع الشمس أجفاني، بصعوبة حاولت فتحها فإذا بي أرى ماجد مستيقظًا وهو يرتدي معطفًا أسود اللون بياقةٍ كلاسيكية، وجيبين أماميين بسحاب، وحياكةٍ ثقيلة بلونٍ مغاير على أطراف الجيوب والأكمام، مع بنطالٍ بلونٍ بنيّ، ثم وضع على معصمه ساعةً مغطّاةً بالجلد من جيفنشي، وبخفّةٍ وضع العطر حتى امتلأت أرجاء الغرفة برائحته، جلس على طرف السرير، ثم أردف قائلًا:

- أعلم أنك يقظة، باريس في الصباح تبدو مذهلة، سأصطحبك اليوم لأعرق مقهى، ثم أطبق يده أعلى يدي برفقٍ ومضى.

استيقظتُ بتثاقلٍ وأنا أفكّر في مجاراة أناقته بملابسي المتواضعة، ارتديتُ فستانًا باللون النيلي الغامق، بطولٍ قصير ورقبةٍ مغلقة وأكمامٍ قصيرة بكشكشة وظهرٍ مفتوح، وأكملتُ الطلّة بوضع أحمر شفاهٍ يميل للون العنّابي.

«تبدين مذهلة» هكذا علق ماجد، ثم فتح لي باب الغرفة وقال:

- من بعدك زهراء

توجّهنا بالتاكسي مباشرةً إلى مقهى لو كافيه فوكيت،Le Café" Fouquet's » الذي يقع في موقعٍ استراتيجيّ، حيث يجمع شارع الشانزليزيه أشهر شوارع باريس بشارع جورج الخامس، كانت الأجواء في الداخل مثيرةً للدهشة ومحفّزةً للتأمل، أشعة الشمس انبعثت من الستائر إلى الداخل، بينما الموسيقى الهادئة تملأ الأرجاء، جلسنا حول الطاولة، على الكراسي الملوّنة بالأحمر القاني، المزيّنة عند الأطراف باللون الأسود، وبعد بضع دقائق جاء النادل حاملًا معه كوبَيْ قهوة، بتردد أطلقت جملتي:

- في البداية خمّنتُ أنك متديّنٌ لحدٍّ ما، لما عهدناه عن عمّك «عبد المحسن» رحمه الله، الذي كان صديقًا لوالدي

وضع كوبه على الطاولة ثم قال:

- لقد ولدتُ يا زهراء ابنًا في أسرةٍ معتدلة، لم يكن والدي رجل دين، أما والدتي فكانت ربّة منزلٍ وحسب، هكذا ببساطة، لم أعهد الدين بأوجهٍ مختلفة، بل تعلّمته وأحببته بوجهٍ واحد، وسِرت عليه بوسطيةٍ واعتدال.

سألتُ في حيرة:

- إذًا أنت وليد عائلةٍ معتدلة، لمَ جعلتني أعتقد أنك.. اعذرني

أجاب مُعللًا:

- أعلم، تعتقدين أنني أبالغ يا زهراء، في المبالغ الطائلة التي أصرفها على ثيابي، والشراب الذي لم تعهديه من قبل.

سألتُ بارتياب:

- إذًا وما الدافع لكل هذا؟

أجاب بصوت هادر:

- القصّة بدأت يا عزيزتي عند العاشرة من عمري، حين ودّع والداي الأرض برحلةٍ إلى السماء، وذلك بفعل حادث سير فظيع، فتعَهَّد عمّي الأكبر «عبد المحسن» برعايتي

علّقت:

- أنا في غاية الأسف يا ماجد

أطلق تنهيدة ثم أكمل:

- كان عمّي رجلًا فارع الطول، مطلقًا لحيةً طويلة تتجاوز أسفل عنقه، ترتفع من مستوى بطنه بقليل، يلبس ثوبًا قصيرًا، ينكمش عند كرشه، يضع مسكًا برائحةٍ حادّة، لو وزّعت قيمته على أطفال أفريقيا لكفتهم، له النصيب الأكبر دائمًا من الوقار من قِبل الناس، تُفرد له صدور المجالس ويتّجه له أبناء الحيّ دائمًا لإعلان توبتهم، التي غالبًا ما تنمّ عن سماعهم للأغاني، أو «التفحيط»، على منابر المساجد وعلى مرأى من الآخرين، يرفع يد التائب ويصرخ بنبرة متباكية ويقول: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» ويستمرّ في تكرارها بينما جموع الحاضرين يكبرون.

قلتُ بلهجة موبخة:

- كما أن لكل قاعدةٍ شواذ، لا بد من وجود رجلِ دينٍ لا

تشمله هذه القوالب، والصور النمطية المعتادة من قِبل المجتمع.

- لم تتشكّل تلك الصور من محض خيال المجتمع يا زهراء، إنها تنشأ في الغالب من معاشرتنا لهم

- وماذا بعد ذلك؟

- ارتشف بضع رشفات من قهوته ثم أكمَل: لقد كان الوصيّ الوحيد عليّ بعد وفاة والدي، وكنتُ في سنٍّ صغيرة، هذا ما مكّنه من التصرف المطلق في أموال الميراث الخاصة بي، وصرفها على زيجاته التي تنتهي غالبًا بالطلاق.

- ماذا عن زوجته الأولى؟

- كانت أمًّا لبناته الثماني، لم تنجب له ولدًا ذكرًا، امرأةٌ طاعنةٌ في السن تلقي المحاضرات في دور الدعوة الإسلامية، لم تُنكر عليه علاقاته المتعددة، فكان دائمًا ما يقنعها بضرورة التعدد للرجل، لئلّا يتجه للطرق المحرّمة، وخوفًا عليه من الحرام وصونًا لبناته كانت تخمد النيران المشتعلة بداخلها حين يقول لها :»أنتِ الكبيرة وأم عيالي».

- وهل كان عمّك يبقيك في المنزل لحماية بناته؟

- نعم، إذ إنني كنتُ الذكر الوحيد في المنزل، ورغم أن ابنته «ربا» كانت تتجاوزني بأعوامٍ عديدة، غير أنني كنتُ المحرم لها، في البدء جاز لي لعب هذا الدور باعتبار أني أخوهن بالرضاعة، وحين بلغتُ الحادية عشرة من العمر، بدأ عمّي يصطحبني معه في رحلاته المتعددة حول منازل الخرج.

- وكيف كانت تلك الرحلات؟

- كنّا نقتحم المنازل، ندخل بنيّة إخراج «الشيطان»، ثم نخرج وعمّي يلوك عود أسنانٍ بفمه.

- سألتُ بابتسامة ساخرة: تعني وجبة عشاءٍ فاخرة؟

- تمامًا، لم يكن الشيخ الموقّر ليرضى بأقل من شاةٍ كوجبةٍ للعشاء.

- وماذا بعد ذلك؟

قال وصوته يتردد في حلقه:

- إن الانعطافة الكبرى التي حدثت في حياتي كانت عندما كنّا في طريقنا لمنزل «أبي عبد الإله»، لإخراج الشيطان، ولكن هذه المرّة من ابنته «شموخ» التي تبيّن لاحقًا أنها مصابةٌ بالصرع.

سألت بفضول:

- وكيف تمّت العملية؟

- لم تكُن هناك عمليةٌ بالأصل، كان أبو عبد الإله يستأمن عمّي على منزله كثيرًا، فيفتح له باب المجلس ويكرمه كرم الطائي، وحين أدخل ابنته «شموخ» على عمّي في المجلس، طلب عمّي منه المغادرة، إذ إنه وكما يدّعي لا يستطيع إتمام العملية في حضور الأهل خوفًا على مشاعرهم.

سألت:

- وكيف كانت تبدو شموخ؟

رد:

- فتاةٌ في منتصف العشرينيات، شديدة البياض، دعجاء العينين، ممتلئة القوام، كانت تضع خمارًا على وجهها، فأمرها عمي بضرورة نزعه، وحين كشفت غطاءها بدا وكأنه غرق في حالةٍ من النشوة حتى كادت عيناه تلتهمان وجهها المستدير بينما راح يردد: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله».

- وكيف كانت ردة فعلها؟

- لم تبدِ ردة فعلٍ في الأصل

قلتُ وصوتي يتردد في حلقي:

- ربّما لأن الضحايا يا ماجد لا يدركون حقيقة أنهم كذلك حتى يقع ما يزيح شكوكهم باليقين بعد فوات الأوان، ثمّة إهانة في عيش دور الضحية باستمرار.

- أعتقدُ أن السبب يعود إلى ما قلته، فمن غير المنطقي أنها قد «استجابت» لكل الملامسات التي حدثت ليلتها من قِبله.

- وهل حضرتَ المشهد بأكمله؟

- ولدتُ طفلًا فضوليًّا وعنيدًا، هذا ما دفعني لاختلاس النظر من النافذة، في البدء كانت أصابعه تتخلّل شعرها الأسود الطويل، من الخلف، راح ينفث بأنفاسه على قفاها وهو يردد: «أعيذك بكلمات الله التامة من كل شيطانٍ وهامّة ومن كل عينٍ لامّة»، شعرتُ بانقباضٍ في معدتي، كنتُ لا أزال طفلًا لم

يخطّ الشارب لونًا أعلى فمه، لكنني قفزتُ يومها عشرة أعوام دون حولٍ مني ولا قوّة.

غالبتُ وجعي وعلّقتُ:

- وهل غادر بعد تلك المشاهد؟

- لم يغادر في الحقيقة، استمرّ المشهد لمدّة ثلاث ساعاتٍ متواصلة، لكنني أجزم أنه سيظل يدور في ذهنها لأكثر من عشرة أعوام، هذا إن لم يستمر معها مدى الحياة، ولنفي الشبهات عنه كان يردد بين كل فينةٍ وأخرى أدعيةً وأذكارًا بصوتٍ مرتفع، اقتربتُ من النافذة أكثر، كنتُ أقف على حوض النباتات في فناء منزلهم الخلفي، واضعًا أصابع يدي على حوافّ النافذة، فإذا بقدمي اليسرى ترتعش وأصابعي بدأت بالانفلات فسقطتُ أرضًا، محدثًا بذلك جلبةً مفزعة، وضجيجًا كبيرًا.

سألت بفضول ملغّمٍ بالخوف:

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- أزاح عمّي سريعًا الستارة فإذا به يجدني ملقًى على الأرض، انتفضت أوداجه، وتقطّب جبينه، لحقني أبو عبد الإله وبغرابةٍ تساءل: «ماذا تفعل عندك يا هذا؟»

لم أُجب، كنتُ أبكي كما لم أفعل من قبل، وكما لو لم يخلق الله لي مدامعَ سوى هذه المرّة، كل جوارحي بكت، استمرَرْت في ذلك وكأنني لا أمارس البكاء وحسب، بل أنهمر وأُطمر في التراب دفعةً واحدة، أما صوتي فتلوّن بنشيجٍ كاد يمزّق حلقي،

ارتدى عمّي غترته وهذّب هيئته وزرّر ثوبه ثم مضى دون أن ينبس ببنت شفّة، وراح سلطان يردد: «العشا عندنا يا شيخ»، فأدار له عمّي ظهره وحملني معه للسيّارة.

- وهل وبّخك؟

- لم يفعل، كان صامتًا على غير عادته، بينما كنتُ أكتم صوت بكائي، لم يؤلمني سقوط جسدي يومها، بل ثمّة شخصٌ ما بداخلي رمى بجسده للهاوية وهو يحمل وجهي وملامح شموخ، ومن يومها أصبحتُ الشخص الذي أنا عليه الآن.

لم أطق البقاء أكثر أمامه بكل هذا الصمود وهو يرمي عليّ جبالًا من الصّدمات المتتالية، كان الوقت قد أصبح ظهرًا، لذا اقترحتُ عليه مغادرة المقهى.

طلب النادل لسداد الفاتورة، غادرنا المقهى، ثمّ أمسك يدي فساورني شعورٌ غريبٌ بالبلادة، أشار لسيارة أجرة مرت من أمامنا، أكملنا طريقنا حتى وصلنا لـ «كاتدرائية نوتردام»، أحد أشهر المعالم في باريس، ثم صعدنا إلى قمّة برجها الجنوبي، بينما حافّة ثوبي كانت تتهادى في مهبّ النسيم العليل، طلبتُ من ماجد القليل من الخلوة مع هذا المنظر المهيب، فاستجاب وأشعل سيجارته، ثم نأى بنفسه عنّي، رحتُ أتأمل تماثيل الغرغول المنصوبة، في الحقيقة لم يأخذني المشهد بعيدًا، فقد كنتُ حبيسةَ أفكاري التي راحت تمدّ وتجزر في عقلي، عن رجال الدين، شموخ، الطفل الذي راح ضحيةً لمراهقة شيخٍ غير مسؤول، وضجّت في عقلي تساؤلاتٌ عديدة حول فلسفة الحياة، ما هي الحياة؟ أهي صورنا الفوتوغرافية لضحكاتنا

الصفراء؟ أتذكرين؟ عندما أخذك والدك لالتقاط صورٍ مذهلةٍ لك، حين كوَت والدتك قميصك المخطّط بالأحمر عدّة مرّات، حين أسدَلت الجدة غرّةً على جبينك، وبدوتِ فتاةً مذهلةً في نظر الجميع، عداك، تبدو الصور اليوم سوداء تمامًا وأنتِ تغطسين في عُمق الأريكة، السبب ليس عينَك، وحتمًا ليس المصوّر، وبالطبع لم تكن الأريكة الجلدية سببًا في ذلك، إذًا ألَم تتساءلي كيف يستقبل عقلُك هذه الصور الآن؟ طولك الآن يوازي ارتفاع باب غرفتك، أنتِ لستِ الطفلة ذاتها، لكنّ المأساة تكمن في القرارات التي لا تزال تُفرض عليك من سنّ الثامنة وحتّى الثامنة عشرة، أعتقد أنك تضحكين الآن، إنهم يطلقون على ذلك مسمّى «الكوميديا السوداء» لا شك أن معناها انفلت من ذاكرتك، لا بأس في نسيان معاني الأشياء طالما أننا نداوم على مزاولتها كل ليلة، هل تذكرين؟ صديقتك، حين اشتكت من حنينها لحبيبها السابق، فتبادلتما الشتائم نحوه بكبرياء وصوت ضحكاتكما تخطّى حاجز السمع؟ لم تكن نكتة، لكنّها هي ذاتها عنصرٌ أساسيٌّ لاستمرار الحياة، إنهم يكذبون عليك بالمناسبة، لا الأكسجين ولا الماء هو سبب استمرارنا هنا، صدقيني، إنها «الكوميديا السوداء»، لا بد وأنك تتكوّرين على ذاتك كلّما مَرّرتِ فكرةَ أن وجودك هو السبب الأزلي لكل هذه المآسي، كشفرةِ موس تحك جلدك اليابس، نعم لقد حدث الأمر هكذا، ويؤسفني القول إن هذا هو حال جميع الأمور التي حدثت وستستمر في الحدوث معك، والوقوع عليك.

قطع حبلَ أفكاري السميك رجُلٌ يقبّل «حبيبته»، كانا يبدوان

في مقتبل الثلاثين، سار نحوي وطلب منّي أن ألتقط لهما صورًا، بيده اليُسرى أزاح خصلةً من على وجهها، بينما كان يجذب خصرها بالأخرى إليه، احتضنها حتى خُيل إليّ من فرط امتزاجهما أنهما شخصٌ واحدٌ، أَليس الحُب هو من يتيح لنا إمكانية أن نقول للمحبوب «أنا؟»، ارتفع كعبُها عن الأرض، كانت كمَن يرتفع عن الأرض بقدميه ليقطف ثمارًا من قُبَل، أما الصّورة فكانت لوحةً قُدّر لهما منذ الولادة رسمُها، وحين انتهيتُ من التقاطها، فكّ قيد ذراعيه عن خصرها، فالحُب برأي غادة السّمان هو «فنّ تحويل القيود إلى أجنحة»، أما في رأيي فهو القيد الوحيد الذي تشعر بحرّيتك فيه، كانت تعابير وجهيهما دلائل قاطعةً على جمال الصورة، «ميرسي بوكو» هكذا عبّرا عن شكرهما الجزيل لي، أكملت المسير وأنا أفكّر في ماهية الحُب، فباعتبار المحبّين أوطانًا، هل يسمح لنا بعبور حدودٍ لم نفكّر بها قط؟ أم أنه يمنحنا القدرة على رسمها؟ إن الحُب هو مُستقبلك الذي سيبقى حبيس الماضي ما لم تشاطره محبوبك، أن تُحبّ هو أكبر بُرهانٍ على الوجود، أنا أحبك إذًا أنا أشعر بوجودك، إن كُنتُ كذبةً فأنت حقيقتي، وإن تخلّلتني الشكوك فأنت يقيني المُطلق، إنهُ قصائدنا الموزونة رغم الكسر، إضرابنا عن العالم وتقبُّلنا لمحيطٍ يختزله، الحُب محيطٌ يُغرقنا ونغرق به ورغمًا عن ذلك نغوصُ فيه بلذّة، أن أحبك لا يعني بالضرورة أننا متشابهان، بل هو تشابهٌ نشعر به رغم الاختلاف، فالحب يغير فينا ما تأصّل بداخلنا من سنين.

(24)

أريد أن أعيش كما أرغب، لا كما ينبغي.

بعد أسبوعين قضيتهما في باريس عدت إلى الرياض، كان والدي في استقبالنا، لأول مرة شعرت أنه افتقدني، لم يسألني عن أي أحد، كان مهتمًّا بي على نحو لم أعتده من قبل.

حين ركبت السيارة آثرتُ الركوب بالخلف على الرغم من إصرار ماجد على الجلوس بجانب والدي، لكنني لم أعتد ذلك حيث كان يشاركنا الشيخ محمد جميع رحلاتنا القصيرة إلى المكتبة والبقالة، جلستُ في المنتصف على غير عادتي، كانت عينا والدي ثابتتين ترنوان إلى شيء ما في الأفق، بغتة شق صوت هاتفي حدود الصمت وكأنه أيقظه من أحلامه، كان رقمًا من خارج السعودية وعلى نحو أثار الريبة فإن المتصل كان مُلحًّا جدًّا.

- رددت: ألو

انبعث صوتٌ أنثوي عجزت عن تمييزه للوهلة الأولى، لكنها قالت:

- زهراء مبارك زواجك، لقد تأخرت لأن هاتفي سُرق وهذا رقمي الجديد.

التوى فمي في تعاسة، أعتقد أني خيبت ظنها بصوتي الذي كان يرتعش انفعالًا حين قلت لها:

- تأخرتِ كثيرًا وعذرك غير مقبول.

سألتني في ارتياب:

- زهراء، أهذه هي الطريقة التي تردين بها على والدتك؟

فأجبتها مصعِّدة الزفرات:

- لقد أخطأتِ الرقم، هذا ليس رقم ابنتك.

ودون أن أمنحها الفرصة لتوديعي أغلقت الخط مباشرة، كانت نظرات والدي التي بدت واضحة لي من المرآة المُعلقة بالجزء الأمامي من السيارة تسألني في فضول: مَن؟

أطلقت تنهيدة ثم قلت:

- إنها امرأة اسمها مريم تُصر على كوني ابنتها.

انتفضت أوداج والدي وعلى الرغم من كونه دائم التبرم إلا أنه في هذه اللحظة تحديدًا بدا غاضبًا للحد الذي شعرت بنظراته وهي تلتهمني.

كان ماجد مشغولًا بتصفح هاتفه الخلوي وبدا غير مكترث على الإطلاق، بينما كنت أشرئبّ بعنقي يمنة ويسرة.

أصرّ والدي على المكوث عنده الليلة لكن ماجد رفض بأدب وعلل ذلك بأعماله الكثيرة التي عليه إنجازها قُبيل يوم الأحد.

تنفست الصعداء حين رفض ماجد دعوته، فأنا أعلم يقينًا أن والدي كان ينتظر اللحظة المناسبة لكي ينفجر غاضبًا علي بعد أن أغلقت الخط في وجه حبيبته مريم.

وجدت اتصالًا منه بعد نصف ساعة من وصولي إلى المنزل،

كان لزامًا عليّ أن أتلقى منه وابل الشتائم واللعائن عاجلًا أو آجلًا، وعلى الرغم من كوني منهكة تلك الليلة قررت الاتصال به وعدم تأجيل شتائم اليوم إلى الغد!

لم يقل مرحبًا بل انهال بشتائمه وصبّ جام غضبه عليّ ثم أنهى مكالمته بوصية عن بر الوالدين، أنصَتُّ له دون أن أنبس ببنت شفة فالحديث إليه يوهن عزيمتي على نحو لا أعود قادرة معه على تحمل سماع كلمة أخرى.

التففت بغطاء السرير وأنا أترنح من أثر النعاس ودون أن أشعر تركت يدي على طرف السرير وغططت في نوم عميق، حلمت للمرة الأولى حلمًا تذكرت كل تفاصيله لشدة ما كان مرعبًا، كانت نورة تغرق ومعها طفلٌ رضيع في البحر بينما كنتُ أنا أحاول إنقاذهما لكن خوفي من السباحة منعني، أما مشعل فكان يقف مُديرًا ظهره كتمثال، كنت أصرخ كالمجنونة طالبة النجدة لكن دونما جدوى، كلاهما يغرقان وأنا متسمّرةٌ على الشاطئ.

استيقظت مقطبة الجبين، كان ماجد يشخر في الجهة الأخرى، ساورني القلق وداهمني إحساس مباغت بالغثيان والدوار، أمعنت النظر إلى تاريخ اليوم على خلفية هاتفي الخلوي، رفعت حاجبي بدهشة بينما أنفاسي تتصاعد، استبدّ بي نوعٌ من الحماس الفضولي، اتصلت بالصيدلية مباشرة.

في يدي علبة باللون الأزرق وعلى ظهر العلبة إرشادات بالخط الأسود تقول: «إذا ما ظهر خطّان اثنان على الشاشة، فذلك دليل الحمل، أما ظهور خط واحد فيدل على عدمه».

كنت أهز أقدامي بخوف وأنا أنظر إلى هذه الشاشة الصغيرة التي ستحدد مصيري وتغير حياتي بطريقة غير مسبوقة، ظهر الخط الأزرق أولًا فتنهدت تنهيدة مطولة، لكن شيئًا في داخلي أرغمني على تأمل الشاشة بعناية بالغة، كنت فاغرة الفم ودَهِشةً من دون أن يطرف لي جفن لقد ظهر الخط الوردي بطيئًا وباهتًا، جزءٌ في داخلي يهمس لي: لا عليك يا زهراء إنه اختبار منزلي وحسب ليس عليك الاعتماد عليه، أما الجزء الآخر فيؤكد لي توكيدًا لا تشوبه شائبة أني حامل!

من المؤلم أن لا يكون لديك شخصٌ تعرف مسبقًا أنه سيطير فرحًا إن زففت له هذا الخبر، لهذا قررت الإنصات للجزء الأول، كنت في السابق أعول على نورة في كل أخباري أما الآن فأنا وحيدة تمامًا، انتظرت إلى حين استيقاظ ماجد، كان هو المعنيّ بالأمر لذا فضلت نقل الخبر له دون أن أهتم لما ستكون عليه ردة فعله، فقد حدث ما حدث.

حملتُ له كوبًا من القهوة وجلستُ على الأريكة المقابلة له، أخبرته عمّا حدث دون أن أتجاهل الأصوات المعارضة والموافقة بداخلي، شرحت له خوفي المصحوب بالدهشة والارتباك، ثم ختمت حديثي بعبارة:

- لكن لا يمكن أن يكون هذا الاختبار بالضرورة صحيحًا علينا زيارة المستشفى للتحقق.

ضحك ضحكة قصيرة على النحو الذي يضحك فيه المرء عندما لا يعرف ما يقول.

ضحكت معه ثم هززت كتفي وأنا أردد:

- من الجيد أني توقعت ردة فعل أسوأ كي لا أشعر بالحزن حين تكون ردة فعلك مجرد ضحكة.

قال وهو ينظر إلى فنجان القهوة كأنه يحاول قراءة المستقبل:

- لا عليك كل شيء سيكون على ما يُرام ثقي بي.

ابتسمت ابتسامة واهنة ورددت:

- حسنًا يا ماجد.

استلقيتُ على ظهري في السرير بينما راحت الأفكار تدفعني يَمنة ويَسرة، لقد كانت لدي أحلام وكنت ألاحق أناي التي في أحلامي، امرأة رشيقة القوام، جميلة، لا تغطي نمش وجهها بطبقات كثيفة من مساحيق التجميل، ولا تسأل المرآة عن أقبح امرأة في العالم وهي تعرف الإجابة مُسبقًا، لا تخاف من خطوط السيلولايت التي تظهر فجأة على جسدها.

وتذكرتُني فجأة، ككابوس يفاجئ حلمًا جميلًا، وعبرتُ شارعنا القديم وبكيتُ على البنايات الإسمنتية، والأسطح الفارغة من كل شيء إلا الخزانات وعُلب التدخين، تأملتُ المكيفات بأشكالها المثيرة للسخرية، مكعباتٌ كبيرة يهدل الحمام فوقها، تذكرت الليالي التي بكيتها وحيدة في غرفتي كقط صغير وتائه، والأمطار التي ارتعبتُ منها، والأم التي استلقت بجانبي حين ارتفعت حرارتي، وتأملتُ السقف للمرة الأخيرة وكان ظلُّ يدي يُربت على رأسي من الأعلى، ونسيتُ أني قد ضعتُ مني، وتشاطرت فراشي مع جسد بارد، ووقّعتُ

عقدًا لأتصالح مع الحياة، فمنحت جسدي الدافئ لرجل ميت وتغيرت رائحتي، ووجهي الذي ظلّله شيء من الهلع احترق من فرط نُضجه، فأواسي نفسي في الليالي الطويلة بأن ظل الرجل الذي تمدد ذات ليلة على جدار غرفتي كان ألطف من اليد التي ربتت على رأسي، وأن البلل الذي تسبب به كان يشبه تمامًا لعق عود كبريت، لقد حماني من الاحتراق، وعشتُ حياة لا معنى لها، وهمستُ سرًّا لنفسي: على الطفلة البلهاء أن تكبر سريعًا، وغسلتُ جسدي مرارًا والطفلة تسربت إلى المجارير ولم أحاول إنقاذها، ولاحقت الظلال ومسحت بقوة اللمعان في عيني وأخفيتُ جريمتي طويلًا بالكحل والماسكارا.

(25)

كطيرٍ في قفصٍ.. تؤلمني أجنحتي

كان ماجد يتصرف طوال فترة حملي كأنه نزيل في فندق من الفنادق، فهو يعيث خرابًا في المنزل ويعلمُ أنه ليس مضطرًا إلى غسل الشراشف أو كيها في اليوم المُقبل، ولا حاجة له إلى جلي الصحون وتجفيفها، بينما لازمني دوار الصباح طوال الوقت لثلاثة أشهر، وتقيأتُ داخل نفسي كثيرًا، ولم تعد شهيتي للطعام مفتوحة، وأجهشتُ بالبكاء دون سبب، ثم تحولتُ فجأة إلى كلب بوليسي يشم الروائح على بُعد أمتار، فأقام جسدي معي هُدنة حين اكتشفتُ أني أمٌّ لصبي، وحلمتُ أنه نائمٌ بجسده الهزيل المائل للزهري على صدري وكنت أمسح على رأسه بأطراف أصابعي، واستيقظت وعيناي مشدودتان إلى صورته المطبوعة من شاشة التشخيص السمعي، وحين طُبِعت بضع قطرات من الدماء على سروالي استبدّ بي الهلع، وحرص الجميع في تلك الفترة على أن أضع وسادة أسفل قدمي وأنا نائمة وألا أبرح مكاني إلا حين أرغب في قضاء حاجتي، فتشققت شفتاي لكثرة ما عضضت عليهما ورجوتُ من أعماق قلبي أن يرغب بي كما أرغبُ به، وضاقت أنفاسي للحد الذي شعرتُ به أني غارقة، فلهثتُ في الممشى حين صارت بطني تنافس أنفي، لقد اشتريتُ له ملابس وارتعبت من حجمها الصغير، كان في منتصفها طوق نجاة بالأبيض والأزرق، وتناولتُ الأطعمة التي لا أحبها من أجله، وكان جسدي قد امتلأ للحد الذي ظننت أنه لن يعود كما

في السابق فحين وصل حجم بطني إلى ذقني أصابني الذعر وكنت عاجزة عن النظر إلى نفسي في المرآة ثم فتحتُ فخذيّ وعضضت على نواجذي كلما أطلقَ رصاصة رحمة في جسدي، فخرَجَ للعالم في يوم ماطر كأنه الشيء الصائب الذي سقيتُ به أخطائي الظامئة.

حين حملتُ يزن بين ذراعيّ للمرة الأولى انتابتني مشاعر متضاربة بين الخوف والحب والألم والحيرة، ورغم أني قد تجاوزت مرحلة الطفلة التي تحتاج إلى والدتها كي تشاركها أهم لحظات حياتها إلا أني وفي هذه الفترة تحديدًا كنت بحاجة ماسّة إليها كحاجة يزن إلي.

اصطحبني والدي من المستشفى إلى منزله، كان الشيخ محمد خارجًا لأداء صلاة المغرب وحينها رأى والدي وهو يحمل يزن بين ذراعيه بحنان بالغ، لقد لمحتُ في عيني الشيخ محمد وميضًا غير اعتيادي يشع في نظرته المحدِّقة إلينا، توقف لبضع دقائق أمامنا دون أن يتجاوز حديثه معنا أكثر من رد السلام علينا، تقدم ببطء نحو والدي ومسح على رأس يزن ثم خرج إلى المسجد، رفعتُ حاجبي دهشة، كانت قسوته تحمل حنانًا لم يتمكن من إخفائه.

ألقيتُ جسدي المُنهك على السرير وأنا أتساءل عن السبب الذي جعلني أوافق رأي والدي باصطحابي إلى المنزل، تأملتُ سقف الغرفة ثم أطلقت تنهيدة مطولة، لم يكن وجودي في غرفتي محفزًا للاكتئاب وحسب بل كان يحمل معه كل ذكرياتي المؤلمة والليالي الطويلة التي قضيتها برفقة نفسي، قاطع

حبل أفكاري بكاء يزن لأول مرة أشعر أن هذا الطفل لا ينتمي لي، أنهكتني هذه الفكرة وهدَّت من كياني ولم تكن نورة هنا لأخبرها بشعوري اللاإنساني هذا.

هززت يدي في الهواء كمن يحاول إبعاد بعوضة عنه، ثم همستُ في نفسي قائلة: أستغفر الله، لا أذكر أني حمدتُ الله بصدقٍ بالغ كما فعلتُ ذلك اليوم حين ضغط أحدهم جرس الباب، تركت يزن مع بكائه وتوجهت مباشرة للرد، كان صوت موضي ينبعث من الجهة الأخرى، فتحت الباب ثم انتظرتُ في غرفتي والقلق يتصبب مني.

كانت ترتدي سترة فرائية وقميصًا ذا قلنسوة، تشبه موضي زوجات الجنرالات في الحرب، أولئك اللواتي كبرت نهودهن للحد الذي أضحت تتجاوز به أنوفهن، تشد شعرها المتموِّج بقوة إلى الخلف بشكل ذيل حصان مستخدمة بذلك ماسكة شعر متواضعة ولا ترتدي إلا التنانير السوداء، كانت عاقدة ذراعيها على صدرها ومقطبة الجبين على النحو الذي يجعلك حذرًا من التفوه بأي كلام لا معنى له أمامها.

على حين بغتة سعلت نورة المختبئة خلفها وكأنها تقول أنا هنا يا زهراء، صافحتُ نورة ووالدتها ودعوتهما للجلوس على الأريكة في غرفتي، كانت نورة تحدِّق إلى الجدار متفادية على ما يبدو النظر إليَّ مباشرة، بينما موضي فقد كانت تردّ على قسمات وجهي الحائرة بنظرة فاترة، أخرجت من حقيبتها لحافًا صغيرًا أبيض اللون ثم قالت مُعلقة عليه:

- سألفُّ طفلك به، لقد كان لنورة وقد أصرّت على أن تورثه

لطفلك الأول.

هربت من فمي ابتسامة حاولت عبثًا إخفاءها ثم قلت:

- شكرًا نورة، هذا يعني لي الكثير.

فرشت موضي اللحاف على الأرض ثم وضعت يزن في منتصفه، كانت تشرح كل خطوة تقوم بها تمامًا كما كانت تفعل مع طالباتها في المدرسة، ببطء لكن بحزم المعلمة التي لن تُعيد ما شرحته للمرة الثانية.

تبادلنا أنا ونورة بضع نظرات لم أعرف ما أفسره بها، لكنني في قرارة نفسي شعرت ببعض الراحة التي تشبه التخلص من المرساة الثقيلة التي تشد السفينة إلى اليابسة، لقد بدت نورة هزيلة وكسيرة الفؤاد على نحو مُحزن، فقدت رونقها وضحكتها التي كانت تصدح في الأرجاء، لأول مرة أراها بهذه الصورة كأنها كبرت مائة عام، كانت عظام وجنتيها بارزةً بطريقة مخيفة وقد ظهر الفضول المتعاطف معها في عيوني ولكنني سرعان ما تخلصت منه حين باغتت ذاكرتي رحلة الشرقية.

بعد نصف ساعة تقريبًا حملت موضي حقيبتها الكبيرة التي تتسع لكل شيء وارتدت عباءتها ثم قالت:

- عندما تحتاجين إلى شيء لا ترددي في الاتصال بي، فأنتِ وابنك وصاية عليّ من جدك.

سألتُها باستغراب:

- الشيخ محمد؟

قالت بنبرة يشوبها الازدراء والسخرية:

- ومَن غيره؟

ودعتني نورة بطريقة مختلفة، كأنها كانت تحاول قول شيء ما لي لكن هناك ما يمنعها، هربت خصلة من شعرها الأسود من تحت وشاحها وهي تنحني إلى يزن لتُقبله ثم قالت بصوت هادر:

- تصبح على خير يا صغير.

ابتسمتُ ابتسامة واهنة وأنا أودعهما وقبيل خروج موضي سألتها بصوت زحفت إليه مسحة من الذعر:

- هل ستقومان بزيارتي غدًا؟

تتلمظ موضي بشفتيها مستحسنة الرأي ثم تخرج.

بينما فككت ضفائري استعدادًا لأخذ حمام دافئ، تركت كل شيء ينساب مني وقد تمنيت حينها لو أنسابُ أنا من نفسي، لو تسيل أيامي نحو البالوعة، لففت المنشفة بلطف على جسدي وخرجت قبل أن تنتابني أي أفكار انتحارية، ضفرت شعري بخمس جدائل كنت أشد بقسوة الشعر القصير الملبد وأضفر، بعد انتهائي جذبت ضفيرتي القصيرة أمامي ولوهلة وددت لو أمسك المقص وأقصها وهذا ما فعلته دون أي تردد، وقفت أمام المرآة وأنا أتأمل خدّي المكتنزين بسبب زيادة وزني وشعري الذي ترك عنقي للعراء، لم أكن أشبه أحدًا إلا نفسي

في تلك اللحظة وقد راودني احتمالٌ غريب بأن أكون أنا مَن أنجبني ورعاني واهتم بي، كان احتمالًا نرجسيًّا لكنه أشعرني براحة لا مثيل لها، من الجيد ألا أنتمي لشيء ولا أكون عبئًا على أحد، إنها متعة غير اعتيادية، أبدى يزن انزعاجه ببكائه، لقد أنقذني بكاء يزن من استرسالي في هذياني، طمأنتُ نفسي وأنا أتمتم: لربما لا أنتمي لشيء لكن يزن ينتمي لي وهذا سبب منطقي للعَيش.

(26)

الأهالي الذين يمنعون أبناءهم من ممارسة شغفهم والبحث عنه، عزائي أنهم لا يقتلون الأبناء فتظهر دماء الجريمة، إنما يقومون بقتل شيءٍ عميقٍ في الروح، وهذا ما يصعب إدانته.

لم يُبدِ ماجد أيّ ردة فعل تذكر، بل اكتفى بحمل يزن بين ذراعيه ثم ناولني إياه، وأخبرني أن صديقه «ياسر» يدعوه للعشاء هذه الليلة، لذا أدار ظهره متجهًا ناحية الباب، وعندها كنتُ أفكّر، الفراغ، الوحدة، كلاهما خيوطٌ موصلةٌ لطريقٍ واحد، وهو الضّجر الذي يتخلله الاكتئاب، ماذا لو لم يمنعني والدي من إكمال دراستي، هل كنتُ سأكمل الجامعة الآن؟ لو عاد مشعل لنورة، لو أخبرها أنهما سيتزوّجان رغمًا عن ارتباطه ببثينة، هل كان سيُشعل فتيل الحُب من جديدٍ بعد أن تركها تحترق بكل تلك النيران وحدها؟ لو لم يكُن ماجد، لو كان عبد الله، هل كنتُ لأتقبّل وجود هذا الصغير هنا؟ ما المغزى من حدوث الأشياء بعد فقدان رغبتنا الكاملة بها يا الله؟ إن الأمر أشبه بطفلٍ يتأمّل لعبته المفضّلة خلف زجاج المتجر لأيّام طويلة دون أن تطالها يده، وحين يكبَر فتتسنّى له الفرص الكافية لابتياعها لا يفعل، إنه يشعر بالغرابة الآن، الجميع يقولون بأنها آثار «النضج»، لم يخبره أحد أنه سكَن بجوف اللعبة منذ تلك اللحظة التي تسمّر بها أمام المتجر وأُغلق عليه الباب الزجاجيّ فبقيَ حبيس رغبةٍ منذ سن الخامسة وحتى الثلاثين التي تجاوزها الآن.

مرّرت إصبعي السبابة على جبين يزن نزولًا لأنفه الصغير،

بينما رحتُ أتساءل عن سبب ولَعنا بالإنجاب لهذا الحد، لن تخلو الإجابات بالطبع من الأنانية، وإن كنا ننكر ذلك في أحيانٍ كثيرة، ما الذي قالته المرأة التي أنجبت أول طفلٍ في هذه الحياة، إن كنّا نستثني أمّنا حواء من هذه الحسبة، أعتقد أنها أشارت إليه بدهشةٍ وهي تقول: «منحني المعنى» وكأننا نخوض في دوّامةٍ من اللامعنى، نُنجب لرغبتنا في أن يصبح شبيه والده في الطول، عمّته في الوجه، والدته في الشعر، خاله في القوّة، ليصبح نسخةً أصلية من الجميع، ومقلّدةً من ذاته.

نُنجب لئلّا نهرم ونبقى وحدنا في عالمٍ يعجّ بالبشر، لنملأ الرّقع الفارغة بنا، من خلال أطفالٍ نحوّلهم لأدواتٍ نتحكّم بها كيفما شئنا ونحقّق مستقبلنا، ننجِب لأن الأمومة تجربةٌ مذهلة، والأبوّة تجربة لا يمكن تفويتها، ننجب لخوض تجارب الحياة، لإكمالها، كأي تجربةٍ أخرى، تلي الحب أو الزواج.

أوجد الله الحُب في البشر ليتخفّفوا من تلك الأنانية المعجونة بهم، الرغبة في إنجاب الأطفال لمجرد إنجابهم، خوض الصداقات للتخلص من الوَحدة، إن الحُب هو الأبواب المشرّعة التي نتجاهلها للدخول من النافذة، الطرقات المشيّدة التي نتجنبها لتسلق الأسوار، شمسنا المشرقة التي تحفّز فينا الرغبة لحفر مزيدٍ من الخنادق.

إنني أخاف الحُب، ورغم ظنوني التي تقول بأنني عشته مع عبد الله، فكلّ حواسي ترفض ذلك، غالبًا ما نعتقد أننا توغّلنا فيه بشدة، بينما نكونُ في الأصل متوغّلين بشعورنا الجيد إزاء

إحساسنا بوجوده حولنا، ثمة شخصٌ ما يكترث لأمرك في هذا العالم، شيءٌ كهذا، شعورٌ لا يتجاوز الاطمئنان ولا يمكن أن نطلق عليه مسمّى الحُب، إن مثل هذا لا يمكن أن يخلق فيك الحاجة لشرع ذراعيك والصراخ باسم محبوبك، في المتاجر العالمية، في المصاعد، لا يمكن أن يدفعك لهز كتفيك طربًا عند وصول رسالة، أو مكالمةٍ فائتة في شاشةِ هاتفك.

في خضم أفكاري المشتتة تلك، راح صوتُ نورة يصدح في الأرجاء، هذه المرّة أحضرت معها طبقًا من «العصيدة» دون مرافقة أمها، لم أبرح فراشي، بينما كان يزن نائمًا على فخذي الأيمن، جلسَت نورة على طرف السرير وغرَفت لي في وعاءٍ من الخزف الذي يُعرف بحفظ الحرارة ملعقةً من العصيدة، ثم قدّمتها لي، «ممتنة لمجيئك نورة» هكذا أردفتُ شاكرة، زمّت شفتيها وهزّت رأسها مُجيبة:

- لا بأس، العفو.

ساد الصمتُ بيننا لدقائق، ثمّ تحدّثتُ كمن يريد فتح بابٍ للنقاش أيًّا كانت دوافعه أو نتائجه:

- عليّ الاستيقاظُ في تمام الثانية فجرًا لأدهن بطن يزن بزيت الزيتون

علّقت متعجّبة:

- لا بد وأن نصائح والدتي تُثمر الآن!

بابتسامةٍ خفيفة قُلت:

- إنني قلقة، أخاف أن أغرق في النوم، وتقلّصات معدة الصغير لن..

قالت مقاطعة:

- لا عليك إذًا، سأبيت عندك الليلة وأضبط منبّه هاتفي في تمام الثانية، سأتكفّل بالأمر، نامي الآن.

ابتسمتُ لها بلطف وشكرتها.

أخذت نورة هاتفها ثم نقَرت على الساعة الرقمية لضبط المنبّه، بشكلٍ مُفاجئٍ قُطع هدوؤها، أدركتُ ذلك من انعقاد حاجبيها أولًا ثم ارتخائهما على نحوٍ غريب، أما شفتاها فكانتا ترجفان استعدادًا للصراخ، بينما عيناها تراكمت بهما الدموع تأهبًا للهطول.

سرقتُ النظر لهاتفها وأنا أمدّ بصري للشاشة، المنبّه يُشير إلى الساعة السادسة والثلاثين دقيقة صباحًا، خمّنتُ أن التوقيتَ متعلّقٌ بمشعل، ومَن غيره يجعل نورة كخيطٍ يتجاذبه طرفان، طرف الخيبات والحُب في آنٍ واحد، لا بد للخيط أن ينحاز لأحد الطرفين، أو أن تؤول نهايتُه للقطع تمامًا، وهذا ما كنتُ أخافُه، أن تُقطع نورة بكل تلك الأضداد.

- هل يمكنك إخباري بما يحدث يا نورة؟ هكذا سألتُ بنبرةٍ قلقة.

على نحوٍ مفاجئ مسحَت نورة مدامعها بأطراف أكمامها، ثم أجابت:

- في ذلك التوقيت تحديدًا، كان عليّ إيقاظ مشعل لأخذ دوائه، كانت حرارتُه في ارتفاع، هذا ما أخبرني به في رسالةٍ نصيّة، لم أستطع النوم يومها، حين اتصلتُ مرارًا والردود الآلية التي تنصّ على شبكة الاتصال غير المتوفرة كادت تقتلني، أتذكرين؟ حين طرقتُ بابك، وتسلّلنا معًا لسطح منزلك.

أكملتُ مقاطعة:

- حين سرتِ حافيةً يا نورة على بلاط السطوح المكسوّ بالغبار والزجاج المتناثر إثر أعمال البناء، عندما أجاب مشعل وتسلّل صوتهُ لسمّاعةِ هاتفك مطمئنًا إياك، حينَ دعستِ على شظايا الزجاج ومن فرط سعادتك لم تتنبّهي لأقدامك التي تصبّغت

بالدماء.

إلى هذا الحدّ انتهى النقاش، ضبَطت نورة منبّه هاتفها على توقيتٍ جديد، بينما كنتُ أُصلّي في داخلي بأن يمنحها الله قلبًا جديدًا وذاكرةً جديدة، أغلقَت الأضواء حاملةً يزن ثمّ أوصدت الباب خلفها ومضت.

(27)

إن حق الإنسان الطبيعي للاعتراض على كونه موجودًا هو البكاء.

في طفولتي، ربما في سن التاسعة أو العاشرة، كنت طفلة منبوذة بين أوساط الفتيات، لم يكن أحد ليصادق الفتاة التي يتوسط وجهها النمش، أذكر أن إحدى الطالبات صاحبات الشعبية الكبيرة في الفصل وقفت على الطاولة في حصة من حصص الفراغ ثم صرخت: على وجهها نمل، ومن يومها وأنا أُثير اشمئزازهن، كنت شخصًا ضعيفًا ومهزوزًا هكذا كانت تصفني معلمة اللغة العربية لا لأني لم أكن أرد على إساءة زميلاتي لكن لأن ذلك أثّر على مستواي الدراسي بشكل ملحوظ فأصبح شغلي الشاغل إكمال يومي دون أن أتعرض للمضايقة.

كانت موضي تحضر مرة كل عام في حفل الأمهات وكل ما تستخلصه من المعلمات هو أني فتاة خجولٌ لحد مخيف، أما زوجة عمي عبد الرحمن (صالحة) والتي كانت تزدريني طوال الوقت، فلم تكن تفتح على نفسها باب تحمل مسؤوليتي بشكل أو بآخر حتى إنها كانت تحرض موضي من فينة لأخرى بأن تزيح عن كاهلها مسؤولية فتاة دخيلة على عائلتهم، وهذا ما حدث فعلًا، مع مرور الوقت لم تعد موضي تفتح باب بيتها لاستقبالي وقد منعت نورة مراتٍ كثيرة من مقابلتي لتأثيري السيئ عليها – كما تدعي -، ولأن والدي لا يفقه في شؤون النساء إلا طريقة كسرهن، ارتأى أنه من الأفضل

ألا أكمل دراستي وأن تدور حياتي حول الاهتمام بالجميع إلا نفسي، تعلمت منذ الطفولة أن أكون متاحة للكل لهذا تخيفني المساحات الخاصة، حتى الحب الذي ظننته كذلك لم يكن لي، كان خطة من خطط نورة، لا شيء في حياتي يخصني أنا مِلكية عامة، مرة لوالدي وجدي ثم لنورة وماجد والآن ليزن.

صالحة امرأة صعبة المراس نحيلة وأنفها معقوف، كنا نطلق عليها أنا ونورة لقب (نِسرة) لطبيعتها المؤذية، بإمكانك ملاحظة عظام ترقوتها ووجنتيها بوضوح من مسافة بعيدة، شعرها قامت بفرده لأنها ترفض طبيعته المموجة لذا فإن جزءًا من مقدمة رأسها داهمه الصلع، تضع نظارتها على مقدمة أنفها كي تلتقط الأشياء البعيدة ولا تخلو زياراتها من أكل نفسها حسدًا وأكل الناس غيبة، تعشق الانتقاد، لذا أذكر كم كانت تشعر موضي بالتوتر حين تجهز لمناسبة ستحضرها صالحة، آخر مرة التقيت بها كانت في الشرقية وقد كانت بعد مدة طويلة من الهجر غير المبرر، لأول مرة نتفق أنا وجدي على شيء وهو عدم الشعور بالارتياح حال وجود هذه الإنسانة في أي مكان، يبدو الامتعاض على وجهه حين تقترب منه وتُقبل رأسه، على الرغم من كونها ابنة أخيه الوحيدة إلا أنه لم يكن يحمل تجاهها أي شعور بالأُلفة، فكما سمعتُ من نورة فإن صالحة قد منعت عمي من زيارة والده إلا في الضرورة القصوى حتى إنه في كل عام لا يحضر أحد الأعياد ويعلل ذلك بأجوبة لا أصل لها، لا أعلم كيف يصبح شخصٌ مثل عمي عبد الرحمن له مكانته الاجتماعية بهذا القدر من الضعف أمام امرأة، وليس ازدراءً مني للنساء لكن عمي عبد الرحمن بالذات

أبعد ما يكون عن مناصرة النساء، لقد احتقرهن في كل مجلس وحلف الأيمان المغلظة على أنه رجل بيته وأن زوجته ليست إلا أمَةً مأمورة يأمرها كيف يشاء ويعذبها دون رقيب أو حسيب، كان والدي يتأفف من حديثه الأخرق هذا ويرجع إلى البيت وهو يأسف على حال ابنة عمه صالحة التي تورطت بزواجها من شخص معقد ومريض مثل هذا، كنا نكتم أنا ونورة الضحكات كلما شعر والدي بالشفقة تجاهها، فقد كان عمي عبد الرحمن الذي يصيح في المجالس هو الأحق بها، لقد طمَسَت مع مرور الوقت شخصيته ومن قلة حيلته لم يملك من أمره سوى الصياح في المجالس والترغيب في الزواج وأن عقاب المرأة ليس إلا امرأة أخرى!

أما ابنه البِكر (خالد) فقد كان خليفة والده ويده اليمنى في الصياح والنواح على أحوال النساء اليوم، حتى إن نورة تفاجأت حين وجدت رسالة حب منه، لم يكن أحد يعلم أن شخصًا صلبًا مثله قد يمتلك مشاعرَ كهذه.

كانت هذه الذكريات المتعلقة بصالحة قد راودتني قُبيل يومٍ من عقيقة يزن، لقد أصرّ جدي أن يتكفل بكل شيء حتى إن ماجد قد تضايق قليلًا من إصراره، اهتمت نورة بأدق التفاصيل للعقيقة، زينت المكان كله باللون السماوي وكأنني أصعد إلى السماء، علقت غيومًا من القطن في الأعلى وألصقت على قوارير صغيرة اسم يزن وصورة كارتونية مُضحكة لطفل يُخرج لسانه، كان كل شيء مثاليًا، لكن موضي شعرت بالتوتر للحد الذي جعلها تنقل الطاولات من جهة إلى أخرى أكثر من مرة،

وقد وبخت العاملات على أمور تافهة، فقد أكدت صالحة حضورها قبيل المناسبة بيوم، أعتقد أنها كانت تقفز فرحًا حين فعلت ذلك، لم نكن نتوقع حضورها وهذا ما خفف علينا في الأيام السابقة، أما الآن فقد قُلب الأمر رأسًا على عقب خصوصًا بالنسبة لمُوضي.

ارتديت فستانًا أبيضَ مفتوح الصدر من الدانتيل بأكمام طويلة وزينتُ عنقي بعقد ذهبي ثم انتعلتُ حذاءً أنيقًا باللون الأسود، أذكر أن نورة تجادلت معي كثيرًا حول تغييره لكنه كان مُريحًا جدًّا وهذا ما كان يهمني وقتها، بدأتُ أسأل نفسي وأنا أسرح شعري أمام المرآة: لماذا نرتدي الأبيض في المناسبات المهمة؟ هل هو طريقة لإعلام الآخرين بأننا نفتح صفحات جديدة في حياتنا؟ أم ربما كان راية استسلام نرفعها للحياة بعد قلق طويل؟ وضعتُ أحمر شفاهي ومسحت الزائد بسبابتي، كنت أبدو شاحبة بالأبيض وقد أكد لي منظري في المرآة أنني لستُ إلا مصاصة دماء، عزوت ذلك للرضاعة الطبيعية والاكتئاب الذي تمر به المرأة بعد الولادة، بكيت دون سبب أمام نفسي وآلمني كم كنتُ قبيحة حتى وأنا أبكي، شتمتُ نزار في أعماقي فلا أعلم أي أحمقَ سيحب وجهي الغائم والحزين!

علاقاتي الاجتماعية ليست إلا حكاية طويلة من الكذب والندم المتواصل، لا شيء في حياتي يستمر بطريقة طبيعية، فأنا لا أعرف كيف أصبح ربة منزل مثالية تستمتع بتعليق الزينة على الجدران قُبيل كل مناسبة، ولا أعرف كيف أزيل بقع الحبر من ثوب ماجد، ولم أتعلم قط طريقة الاهتمام بنبتة، ولا حيوان،

ولا أجعل الفضيات في المطبخ تلمع على النحو المطلوب، وما زلتُ أخاف من تحميم يزن وأتقزز من تبديل الحفائض له، وعلى الرغم من أن حياتي لم تكن تخلو من خدمة الشيخ محمد ووالدي إلا أنني كنت في حاجة إلى توجيه أنثوي في مسائل كثيرة، هكذا كنت ألتف حول إلقاء اللوم على أمي كلما واجهت مشكلة، ربما أنا أحببتها حد الخيبة. جلستُ على طرف السرير محدودبة الظهر كانت تطوِّح بي الكآبة وكأنني طائرة ورقية انقطع خيطها، طرقت نورة الباب وهي تردد من خلفه:

- زهراء، إنهم على أُهبة الوصول، أرجو أن تكوني مستعدة.

حملتُ يزن وخرجت سريعًا من الغرفة، مدت نورة يديها إشارة لأن تحمله بدلًا عني ثم قالت:

- أعطيني إياه ولتذهبي عند أمي وإلا فسيقتلها توترها.

كانت موضي تستشيط غضبًا على العاملات، فتأمر تلك وتنهى الأخرى، ثم تقف أمام المرآة من فينة لأخرى لتقوم بتعديل مكياجها، ومن الجيد أن جرس الباب هدّأ من روعها، فتحَت الباب واستقبَلَت صالحة بود صديقة تغيبت عنها لمدة طويلة أما الأخيرة فكانت تزُمُّ شفتيها وتبوِّز، لكنها وعلى غير عادتها ابتسمت لي ابتسامة حارّة، كان وجهها يخلو من مساحيق التجميل باستثناء بعض الخطوط التي تحدد جوانب عينيها، جلست على الأريكة وهي ترشق المكان بنظرة خاطفة يمنة ويسرة.

حمَلَت يزن بين ذراعيها ثم أمعنَت النظر إلى وجهي وهي ترفع

نظارتها للأعلى فقالت بنبرة تشوبها الإهانة:

- من الجيد أنه لا يشبهك.

أقلب وجهي مقطبة بينما نورة تحاول تلطيف الأجواء فتسألها:

- لماذا لم تُحضري سارة الصغيرة معك؟

عقدت ذراعيها على صدرها ثم أجابت:

- تركتها بصحبة خالتها.

كان ثمة صمتٌ واسع بيننا فمُوضي حذرة بالتعامل مع امرأة حادة اللسان ميّالة إلى السخرية والعبث كصالحة.

سَعلَت على حين بغتة ثم قالت وفي نبرتها حدَّة جديدة: لم أكن لأحضر لولا إلحاح عمي محمد، فكما تعلمن أنا لا أحب التجمعات العائلية خصوصًا وأن (ثم ابتلعت كلامها وتركت الجملة مفتوحة لفهمي)

لقد واجهت الكثير من التعصُّب والابتذال العميق الجذور لذا فلم تعد لي طاقة لإعطاء درس في الأخلاق لامرأة مثل صالحة.

انتقلت نظراتها إلى موضي فسألَتها بخبث:

- أليس لابنيك نية في العودة من أمريكا؟ أم أنهما قررا الزواج من نساء أجنبيات كما فعل عمهما؟

كان ثمة هدوء مشوب بالثقة يظلِّل مُوضي، ردت بهدوء:

- أعتقد أن أبنائي لن يخطئوا بقدر ما أخطأتِ يا صالحة، لقد ربيتهم على الاقتناع بما لديهم كي لا يأتي يوم يأكلون به بعضهم بعضًا من فرط الطمع.

رفعت صالحة حاجبها في استغراب ثم سألت:

- ماذا تقصدين؟

أجابتها موضي وهي تبتسم ببرود:

- أعتقد أن الوقت حان لكي يعرف الجميع حبك لسالم الذي كان من طرف واحد، هل تعتقدين أنكِ بارتدائك جوارب سوداء طويلة أسفل تنورتك كي لا يظهر جزء من ساقك تُخفين قبحك وعيوبك؟ إن الحديث معك يشبه النفخ في الهواء، بلا فائدة!

كنتُ فاغِرة الفم ودهِشة من الخبر الذي سربته لنا موضي أما صالحة فقالت بصوت يرتعش انفعالًا:

- ألم يكن من الأفضل له أن يتزوج ابنة عمه على أن يعيش الآن وهو هائم بذكرى امرأة لا تكترث لأمره؟ لم يكن بيننا أي تواصل لكن حديث والدي المستمر عنه وإصراره على الزواج منه منذ الصِّغر هو ما أشعل بداخلي فتيل الحب. اسأليها إن كانت سعيدة الآن في هذا الزواج – أشارت بيدها نحوي -، أنا لا أتحمل رؤية وجهها بعد هذه السنوات، فهي تذكرني بخيبة أملي الوحيدة. أما أنتِ يا موضي أفلم تسألي نفسك لماذا ترفض ابنتك نورة كل من يتقدم لخطبتها، حتى إنها كسرت قلب ابني؟ لأنها ببساطة مثل عمها سالم لا تحب إلا ما لا تستطيع الوصول إليه، أين هو الاقتناع الذي ربيت أبناءك عليه

يا مُوضي؟ أم أن الأمر كان يدور حول كل شيء إلا الحب؟!

ابتسمت نورة وغادرت المكان أما موضي فكانت تصرخ:

- «أنتِ كاذبة، منافقة».

لحقتُ بنورة، كانت تبكي في غرفتي كطفل صغير وهي تردد:

- لا أعلم كيف يبدو مشعل واضحًا على وجهي إلى هذا الحد؟

بعد مغادرة الجميع وتناولهم لطعام العشاء، ونهشهم بعضهم للحوم بعض، هدهدتُ يزن في أحضاني حتى نام، وذهبتُ لإحضار الماء، وأنا في طريقي للمطبخ رأيتُ جدّي محمد متكئًا على الأريكة، كان كمَن ينتظر هذه اللحظة عُمرًا بأكمله، بلهفةٍ غيّر طريقة جلوسه ثم أردف قائلًا:

- كيف بَدت سلِيطة اللسان صالحة؟

أجبتُه بسؤالٍ آخر:

- لمَ أصررتَ على دعوتها يا جدّي؟ وما سرّ علاقتها السابقة بوالدي؟

قال بصوتٍ مختنق:

- وهل أخبرتكن بعلاقاتها السابقة أيضًا؟ إليك الخبر الأكيد إذًا، لقد أحبّت والدك حدّ الجنون، حتى إنها لم تتوقف عن الاحتفاظ بصوره، لم أعترض على زواجه منها قط، بل كنتُ أحرص على زرع اليقين بداخلها بحتمية زواج ابني سالم بها،

كنتُ أرى فيها الزوجة المثالية لسالم بكل المقاييس، فهي تجيد الطهو بشكلٍ رائع، كما أنها كانت على أهبةٍ لتقديم تنازلاتٍ عن وظيفتها من أجل العناية بسالم وأبنائهما في المستقبل.

قلتُ منفعلة:

- وهل كان سهمُ الحُب مرتفعًا من جهتها وحسب؟ باعتبار العلاقات في هذه العائلة مزادًا تُقحم فيه أطرافٌ لا شأن لها بالآخر؟

وبينما كنتُ أكمل حديثي فإذا بي أرى طرف ثوبٍ خرج من زاوية الباب، لا بد وأن والدي أراد أن يشاركنا الحديث أيضًا.

أكمل جدّي بهدوءٍ غير متنبّهٍ للباب:

- لكنّ والدك لم يرفض ولم يقبل، كان صامتًا في المنتصف، وحين غادر للشام فوجئنا بزواجه من والدتك، لم تكُن الصدمةُ مقتصرةً على صالحة وحسب، لكنّها بالتأكيد كانت مضاعفة ولا شكّ أن بعض المشاعر خالجته تجاهها، كيف لا وهي ابنة أخي الذي يملك جاهًا ومنصبًا محترمًا.

قاطعهُ والدي على نحوٍ مفاجئ قائلًا:

- لا أعلمُ إن كانت كل هذه السنين كفيلةً بمعرفتك التامّة بي، لكنك تصرّ يومًا عن يوم بترسيخ فكرة أنني لا أزال طرفًا مجهولًا بالنسبة إليك.

تدخّلتُ بنية إنقاذ الموقف:

- لا بدّ وأن جدي اعتقد أن عدوى الحب أصابتك أيضًا، كيف لا وهي التي فقدت صوابها عند معرفتها بزواجك من والدتي مريم.

انتفخت أوداج جدّي قائلًا:

- لستُ بحاجةٍ لتبرير أيّ موقفٍ في السابق يا ابنتي زهراء، أنا لستُ الرجل الذي سيتمكّن من تصحيح الماضي.

أردف والدي قائلًا:

- لكنّك أفسدت الاثنين معًا، فالمرأةُ التي تركتُها في الماضي لا تزال تلاحقني في المستقبل، وهنا طرفٌ يدفع الثمن، تأملها جيدًا، ها هي ذي حفيدتك، أما صالحة ورغم إنكارها المستمرّ ونفورها من المجالس التي يُلفظ فيها اسم «الحُب» غير أنها كانت تحتفظ بكل أشرطة عبد الحليم، وتحتفظ بصور الفتيات على أغلفة المجلّات وتلصقها لي في رسالةٍ ورقيّة ظنًّا منها أنني أريد أن تصبح نسخةً منهن وأن هذا سيزيدني حبًّا بها، ومن يستطيع لومها بعد كل هذه السنين؟ أولَست أنت من زرعت فيها حبًّا ووعودًا كاذبة بزواجٍ يستحيل حدوثه؟ أوَلستُم أنتم من وضع المرأة في قالب الطهو والجمال والتنازلات التي لا أصل لها؟ لكنني لم أرد ذلك يا والدي، ولم تسألني عن رغبتي الحقيقية بإتمام هذا الزواج أو عدمه، ولم أستطع رفض حبّها الذي أغدقتني به لأنني لم أشأ أن أكسر قلبها.

بنبرة ساخرة قال جدّي:

- وماذا يُمكن أن نطلق على هذه اللعبة الآن يا سالم؟ عن ارتباط ابنتك المزيَّف بماجد رغم يقينك الذي لا يشوبه شك أنها لا تحبّه، ولا يمكن لها أن تفعل، كيف لا وقد منعتها من التواصل معه أو التحدث إليه، ولم تسألها، أمّا عن تقديم التنازلات فقد أجبرتها على ترك دراستها، أنت أيضًا فعَلتها، وإن كنتُ قد حذوتُ حذوًا سيئًا في الماضي، فلمَ أصررتَ على اتّباعه وممارسته على زهراء وجرّه إلى المستقبل؟ أرجو أن لا تناقض نفسك في المرّات القادمة.

حمل جدّي عكازه وخرج، بينما كان والدي لا يزال تحت تأثير صدمة كلماته له، أما أنا فتجمدتُ في مكاني ولم أستطع كتم العبرات، كنتُ أزدردُ ريقي بصعوبةٍ بالغة، أحسستُ بتدفّق الدم في جسدي، بينما حرارة جلدي كانت ترتفع، وقلبي ينبض بشكلٍ متسارع، أنظُر لوالدي من غبش الماء المنهمر من عيني، وأتساءل: «لماذا؟» ذهبتُ لغرفتي، وأنا أخطو تلك الخطوات كنتُ أتلاشى شيئًا فشيئًا.

ثمّة مأساةٌ تكمن في وقع الحقائق على مسامعنا، رغم أننا نُدركها تمامًا، ونعيش في قلب الأزمة، غير أن سماعها يُعيد فتق الجراح التي ظننا أننا نجحنا في رتقها، ثمّة لذةٌ مخبّأة في بقائنا داخل دوائر الشك والتأمل، لليقين أنيابٌ حادّة.

أحيانًا أتوق لمعرفة وجهي الحقيقي، وأعتقد أنه سقط منّي وأنا أخلع أحد الأقنعة.

لقد عرفناها يا الله وتيقنّا بوجودها حق يقين، إنه الخيبات ذواتها، لكنّني لم أطمع في أن أصبح فتاةً مدلّلة، أو امرأةً

تصلّي لك آناء الليل لتنجبه ذكرًا، ثم تشتم ذكورة العالم في النهار، إنني لا أعترض يا الله، أنت وحدك تعلم كم تعصفُ بي هذه الأيّام، قبل أسبوعٍ، كنتُ أجلسُ وحدي وأنا أتأمّل الرجل الذي يجرّ عربة «البليلة» فإذا به يدعس حبّة الطماطم التي تدحرجت من كيس جارنا فأصبحت عُصارةً تحت العجلات، وأصمت رغم رغبتي البالغة في الصراخ وقول: هذه حياتي، وأمضي رغم أن الطريق قد ابتلع جميع خطواتي نحو الوصول، وأكمل المسير رغم أقدامي المفخّخة بالضياع، وتنفجر في وجهي الفخاخ لأن مسافات المسير في ازدياد، وتتلطّخ ملامحي بالتيّه، وأمسح وجهي بمنديلٍ ورقي فتُطبع ملامحي التي داهمتها لُزُوجة التعرّق، أفقد ملامحي وأطويها في جيبي وأنا أمضي للشارع الآخر، وأراهم يضعون حطبًا على نيرانهم، الأجواء باردة فلمَ تصببتُ عرقًا يا الله؟ أزيد تسارع الخطوات، فأنا أخاف النيران، منذ أن احترق قلبُ نورة وهي تمدّ مشعل برغيفٍ من البقاء، لكنّه رغمًا عن ذلك رحل، لمَ نفضّل جوع الرحيل على شبَع البقاء يا الله؟ الوقت يتأخر وعقارب الساعة تلدغني، وأنا عُدت محمّلةً بكل الضياع وحدي.

(28)

رغبة عميقة في الاستيقاظ بتاريخ ميلاد جديد، جسدٍ لا يمتّ لي بصلة، بالحصول على أُصدقاء جدد، هوية مختلفة، والأهم من كل هذا ذاكرة خاوية تمامًا من كل ما عرفته في حياتي السابقة.

دوت نبرات ماجد في الغرفة وأيقظتني من نومي، فتحت عيني بتثاقل، نضوت الغطاء عن جسدي عاد صوته من جديد، كان يهزني بقوة وهو يسأل بقلق:

- زهراء.. هل تكرر عليكِ حلم نورة مرة أخرى؟

بدا الذعر واضحًا على وجهه أما جسدي فكان مبتلًا من فرط التعرق، أجبته بحزن:

- نعم، إنه الحلم ذاته.

أبدى انزعاجه من الأمر ثم اقترح:

- علينا أن نأخذك إلى الطبيب، لقد مر عامٌ على الحادثة وأنتِ ما زلتِ تعانين من الكابوس ذاته!

هززت رأسي في قسوة عندما قالها، وقلت بصوتٍ أجش:

- لا داعي لذلك.

أراح جسدي في يديه ثم ساعدني على الاتكاء، اقترب بوجهه وأصابعه تداعب شعري، قال وهو ينظر في عيني:

- زهراء.. أعلم أن موت نورة كان له الأثر البالغ عليك لكن

أرجو أن تتعلمي كيف تمضين قُدمًا، لم يكن ذنبك أنها ألقت بنفسها.

دموعٌ تزاحمت في عيني لم أقوَ معها على الرد، أذكر جيدًا كيف كانت ترتعش يدا عمي سعيد، بينما راحت ضحكات موضي تفضّ أبكار الصمت المهول الذي كان يخيّم علينا، ضحكَت بصوتٍ عالٍ ونبراتها تتردد في الأرجاء، لم يكن المنزل فارغًا من أين أتى الصدى؟ هل هذا دويّ روح نورة يصدح في الأرجاء؟ بماذا ارتطمت روحها لتنعكس على هيئة ضحكاتٍ في يوم وفاتها؟ على أحدهم أن يوقف هذه الأهازيج، هذا القرع المستمرّ، فما أنا بأغنية وما قلبي بمسرح طبولٍ يا الله، ضحكَت موضي حتّى ظننتُ أن أوداجها البارزة تعصِف وترعد، كان لها شكل صاعقة، ورغمًا عن وصفهم لبرودة المطر كانت تبكي بحُرقة، لا جريمة هنا، بل محضُ دماء متدفّقة، الجاني والضحية هُما شخصٌ واحد.

من يأخذُ بيدك في المحكمة إن رفعتها لتخبرهم أن أحدهم رمى بجسده للهاوية وحملك معه، من تراه يكترثُ حين تُشير للقاضي بسبّابتك وتقول: هذا الجسد هو محضُ مدخنةٍ فارغة وهُنا حريقٌ في صدري؟ أيّ محضرٍ ستقدّمه مطالبًا باستعادة روحك، لقد أفنيتُ دموعي وقتها فباتت مُقلتاي فارغتين، هذا ما يفسّر نظرة الشرود التي سكنتني منذ عام، بؤرة عينيّ خاوية إلا من ذلك المشهد الذي يُعاود تكرار نفسه.

لقد رحلت نورة دون أن تترك أي ملاحظة، الأمر ليس كما في الأفلام والروايات، لقد كان حقيقيًا للحد الذي لم يكن لديها ما

تقوله، لذا كتبتُ رسالة انتحارٍ على لسانها، مددتُ يدي إلى الدفتر بجانب سريري، فتحت الصفحة التي كتبتُ بها رسالة انتحارها، كانت معظم الكلمات غير واضحة، لقد كتبتها بدموعي دمعةً تلو الأخرى، أعاود قراءة الرسالة كلما مرت عليّ في حلمي، ربما قد نسيتُ حدثًا أو تركتُ جزءًا فارغًا، بسرعةٍ أقلبُ يدي بين الأوراق وبخشوع أقرأ:

«تبدو فكرة الحياة في ذاتها أمرًا مثيرًا للضحك، مُنذ اللحظة التي صرخت بها وأنت ذاهبٌ إليها – لقرارٍ - لم يكُن في البدء من اختيارك، وعند إكمالك الأسبوع الأول من خوض هذه الحياة، سجِلٌّ تطعيماتك يكتظ، وملامح أقاربك الذي يصرّون على قرص خدّك ثم تقبيله مرارًا تثير انزعاجك، تبكي، لأنك عاجزٌ عن الكلام، تحملك والدتك فتصمت، تشعر بسكينةٍ غريبة تشقّ صدرك وسط كل القلق الذي عبَرك، تغمض عينيك، الجموع من حولك يهمسون: «لقد نام، ضعيه في السرير» ثم ينطقون اسم أمك الذي أصبح مرفقًا باسمك منذ أسبوعٍ واحد، تضعك في المهد وتمضي، تحدّق في سقف المهد المعلّق بالكثير من دمى الديناصورات والسلاحف والأسماك التي تصدر صوتًا يشبه الخشخشة، تريح يدك اليمنى ودُمية الدبّ تصبح أسفل ذراعيك، تفزع، وتبكي لأنك عاجزٌ عن الكلام من جديد، تدخل والدتك، تحملك لصدرها بينما تمرّر أناملك الصغيرة التي لم تتجاوز ٣ ملم، المغطّاة بقشور الرحم، ثم تضعها على عُنقها، ستُمسك أناملك الهشّة وتقرّبها لشفتيها واحدَةً تلو الأخرى بينما لا تكفُّ عن تقبيلها، ثم تضعك في المهد نفسه، لا تكن طفلًا شقيًّا، دع الليلة تمضِ

وحسب لمزيد من القُبلات صباحًا، ستطول أظافرك، وتبدأ باكتشاف وجهك وما أن تتحسّسه فإذا بك تكشطه وكأنك تبحثُ عن ربحٍ ما خلف قطعة اللحم التي تغطّي عظمك، وما أن تفعلها سيفزع والدك، ثم سَيُلبسك قفازًا صغيرًا لئلّا تخدش وجهك الصغير، تبكي، لأنك عاجزٌ عن الكلام.

تكبُر، حيثُ لا وجود لتطعيماتٍ ضد الندم أو الحب المؤذي، لا سجِلً تعليمات لمواعيد استخدام العقل والقلب، لكنّك ما زلتَ تخاف الدّمى، كيف لا وقد اكتشفت أن العالم مسرحٌ واسع، لربّما تكون قد وقعت في غرامِ أحدهم، مصادفةً في الشارع العام أو في محطّات القطار، على الأرجح في المقهى، وحين افترقتمُا رجَوت النادل هناك أن يمحو أيديكما التي تشابكت فوق الطاولة ذات ليلة، إصبعًا، إصبعًا، ومن يمكن أن يحميك من كشط قلبك هذه المرّة؟ ومن هنا يُدير لك القدر ظهره، تمضي وتظن أنك فعلت، بينما تكون قد نسيت كل الشّوارع والأرصفة ومحلّات الورود التي عبرتماها معًا مطبوعةً على قدميك، ورغم أن الليل سيتضاعف عليك غير أنك ستتعايش، لا لأنك عاجزٌ عن الكلام هذه المرّة، بل لأنك عاجزٌ عن صياغته.

وهنا تكمن المعضلة والمأساة، في التعايش.

أكتب هذه الرسالة لأنني تعايشت وفُرص العيش أوصدت أبوابها في وجهي، تعايشتُ مع هلاوسي التي تُظهر لي مشعل في كل مكان، على الأريكة، بجوار سريري، في أوجه المارّة، وتقبّلتُ ذلك بصدرٍ رحب يضيق كلَّمَا تذكّرتُ زوجته بثينة،

وعذّبتني الأسئلة التي لم أتمكّن من طرحها وقسمتني لنصفين، هل كانت لتتعرف إلى الوحمة التي على ظهره؟ ماذا عن القلق الذي سيُصيبها ناحيته، هل سيجعل منها امرأةً مجنونة تستيقظ فزعةً في منتصف نومها، تمشي حافية القدمين باحثةً عنه؟ ونسيتُ عُمري كلّه إلا من اللحظات التي آلمتني بها قسوة والدي، وتذكّرتُ الرابط بين عقال رأسه وتبوّلي اللاإراديّ على الفراش، ورسموا لي خطوطًا حمراء وقالوا اثبتي، فإذا بي أجد نفسي وسط حلقةٍ صغيرة، بينما العالم من حولي ملوّنٌ بالأحمر، جرّبتُ القفز مرةً وبتروا أقدامي، حلقةُ العادات والتقاليد عندها ضاقت بما يكفي لإصبعي الصغيرة، وسخطُ والدتي المستمر عليّ كان بمثابةِ نيرانٍ تحاوطُ تلك الحلقة، وما تغيّب عن أذهانهم أنني لم أكُن لاعب سِرك، فاحترقت، والآن، ما الذي سيسدّ حلق العُمر بعد مضي سنواتٍ في علاقةٍ واهمة؟ كيف أوقفه عن الانهمار؟ كان لغزًا وجدتُ حلّه وأنا أحدّق من هذه الحافّة.

الوداع..

- نورة»

أخرجُ من غفوتي على صوت ضحكات يزن، كان ماجد يغطي وجهه براحتَيْ يديه ثم يبعدهما بعد ثوانٍ من الانتظار ويقول: بووو، كانت تلك الحركة تجعله ينفجر ضاحكًا.

جررتُ أقدامي إلى المغسلة، نظرتُ إلى وجهي في المرآة فصفعته بالماء حتى صار وجهي يسيلُ من عليها، انسحبت بصمتٍ إلى غرفتي وبدلتُ ثيابي، لم يكن هناك في جسدي جزء

يسير سيره الطبيعي، كان متعرقًا ويداي ترتعشان أما ساقاي فكانا بالكاد يحملانني، ارتديت قميصًا قطنيًا أسود اللون، فتح ماجد الباب وهو يحمل يزن ثم علّق قائلًا:

- عليكِ أن ترتدي لونًا آخر، ثم نظر إلى يزن وسأله: ألم يئن الأوان لكي ترتدي ماما لونًا غير الأسود؟ فضحك الأخير.

رفعتُ القميص مِن على جسدي وأنا أنظر إلى نفسي في المرآة الطويلة المُعلقة على خزانة الملابس، كان جسدًا لشخصٍ آخر لا أعرفه، هزيلًا وغير قادر على تحمل هموم الحياة، ارتديت كنزة بيضاء خفيفة طويلة الأكمام، ذات فتحة رقبة مستديرة وفي منتصفها خطان متوازيان بالأحمر والأزرق.

ألقيتُ بجسدي على الأريكة في الصالة دون أن أكترث لبكاء يزن ورغبته في حملي له، ساحت عيناي في النظر إلى بندول الساعة العتيقة التي ورثها ماجد عن والديه، كأنني أراها للمرة الأولى، تك تك تك يمنة ويَسرة في حركته الأبدية المنتظمة، شعورٌ رائع بالخدر سادني، لم أشعر بهذا الارتياح منذ مدة طويلة، كأن روحي تعلقت بأرجوحة زمنية.

اقترب ماجد من وجهي وهو يشيح يديه في الهواء، سأل:

- أين ذهبتِ؟

بخفة أرجعت خصلة من شعري خلف أذني ثم حملت يزن دون أن أرد عليه، أمسك بذراعي ثم قال:

- أعلمُ أنه وقتٌ صعب لكنك ستتجاوزينه، أنتِ قوية.

لم أكن قادرة على النطق بكذبة جديدة بل لقد فقدت اتصالي بالواقع، كانت روحي قد تسامت أو انتقلت لبُعد آخر فصرتُ مُغيبة.

حمل قميصه الذي تتداخل ألوانه بين الأزرق والأصفر والأبيض ثم علق:

- أرجو أن تقومي بكيه، فالشباب في انتظاري.

تركتُ يزن على الأريكة وفرشتُ سجادة على الأرض وشرعت بالكي، حرقتُ جزءًا من قميصه ومن الجيد أنه لم يكن واضحًا، مددتُ له القميص دون أن أُعلق.

تأفف قُبيل خروجه من المنزل، أخرج مفتاحًا من سلسلة مفاتيحه ثم وضعه على الطاولة وهو يقول:

- في حال زارتك موضي فهذا مفتاح الشقة والفناء الخارجي.

أومأتُ برأسي دلالة على الشكر، كان يزن لا يزالُ جالسًا على الأريكة يحاول قضم علبة المناديل الورقية ويصرخ، برفق أبعدت علبة المناديل واستبدلت بها مصاصته التي صار يرفضها بشدة، مددت له قدميه الصغيرتين ثم وضعت رأسي في حجره، ضحك بشدة وهو يشد شعري بقوة بيديه، كنتُ بحاجة لأن أضع رأسي الثقيل على أي أحد حتى لو كان يزن الذي يحاول أكل شعري!

سمعتُ صوت الجرس، خمّنتُ أنها موضي، ومن غيرها سيزورني؟ رحّبتُ بها ودعوتها للدخول، كنتُ أحدق بها كأني أراها أول مرة، في زيارتها الأخيرة لي والتي كانت قبل شهر من

الآن كانت تبدو مختلفة بشكل كبير، وجهها هذه المرة شاحب، ارتسمت عليه ملامح الأسى، أما عيناها ولطبيعتهما الغائرة فامتلأتا وتظلّلتا بقتامةِ العالم كلّه، خلعت عباءتها ثم علّقتها على المشجب، كانت ترتدي قميصًا أسود اللون بأكمامٍ طويلة وطيّات عند الرقبة، وتنوّرةً قطنية من اللون ذاته، كان جسدها هزيلًا حتى كدتُ ألمح عظام ترقوتها البارزة، فقدت ضخامتها بشكلٍ ملحوظ، أما شعرها وبعد أن كان متّسمًا بغزارته تفرُده على أكتافها، أصبح رقيقًا لا يكادُ يكفي للإحاطة بوجهها، كانت كثافته تتضاءل، غطّت رأسها ونحرها بشالٍ أسود، ثمّ جلَست أمامي، سكبتُ لها فنجانًا من القهوة، وبينما كنتُ أناولها كأسًا من الماء قلتُ:

- هل كل شيءٍ على ما يرام يا أم راكان؟

صمتت برهةً وهي تمسح دموعها بيدها المرتجفة، ثم قالت:

- لو كانت اللغة أوسع، لو كانت الكلماتُ أكبر، لحدّثتك عن كل الليالي التي جلستُ بها وحيدة، في حين أن الجميع يعتقدون أنني امرأةٌ صلبة.

أخذَت نفسًا عميقًا وتابعت كلامها:

- قدمتُ أوراقي للحصول على تقاعد مبكر، أما فيصل وراكان فلَم يعاودا زيارتي من جديد، آخر مرةٍ التقيتُ فيها بهما كانت في أيام العزاء، الفراغ ينهشني.

ارتشفتُ قهوتي ثم سألت:

- ماذا عن حالتك الصحية الآن؟

قالت وهي ترتشف قليلًا من الماء وقد تناثرت منه بضع قطراتٍ من شدّة ارتجافها:

- سعيد يشهد كُل نوبة بكاءٍ لي يتبعُها ارتفاعٌ في ضغط الدم، يحملني إلى الفراش، يُحوقِل، ثم يسألني عن رغبتي في الطعام وأجيبُ بلسانٍ ثقيل: أريد نورة.

فجأة كأنها تذكرت شيئًا وسط حديثها، فتحت حقيبتها وأخرَجَت كل ما فيها فتحت الجيب تلو الآخر ثم حملت ورقةً رثةً مطوية، وناولتني إياها، فتحتُها بحذر مَن يخاف أن يتمزق جزء منها، ثم قرأتُ:

الحمد لله وحده وبعد، ففي يوم الأحد بتاريخ ٥/٢/١٤٤٠ هـ صدر لدينا نحن القضاة في المحكمة بالرياض بناءً على ما وردنا من فضيلة رئيس مباحث قسم الشرطة شهاب سليمان بتاريخ ٦/٢/١٤٤٠هـ ، ما يفيد بسقوط فتاة تدعى نورة سعيد من بلكونة بحي النسيم شرق الرياض من الدور الخامس، وبالانتقال لمكان البحث والفحص والتحريات بمعرفة النقيبين ريان عبد الله، حمزة إبراهيم، تبين أن المنتحرة كانت تمرّ بحالة اكتئاب شديدة.

كما قرر فرد الأمن التابع لأمن الحي المسؤول عن حراسة العمارات أنه تقابل مع المنتحرة وهي في طريق عودتها للمنزل وكانت تتحدث بطريقة هستيرية، وبعد مرور القليل من الوقت سَمِع صوت ارتطام قوي وفوجئ بها مرميّة على الأرض.

وبسؤال المقربين لها، من ضمنهم سعيد محمد، وموضي

حسام، أنها كانت تمر بفترة من السكون الغريب وحالة نفسية سيئة.

تم تحرير محضر بالواقعة.

أدعو لها بالرحمة.

اغرورقت عيناي بالدموع وتورّمتا، شعرت بأوصالي قد تصلبت في مكانها كالشلل في جسد المريض، لم أعد قادرةً على الحَراك، بينما كانت موضي تجهش بالبكاء، لقد بكت بكاءً متحشرجًا يستعصي على التماسك وإظهار رباطة الجأش.

قلتُ مُطمئِنة:

- سيكون كل شيءٍ على ما يرام، وسنتجاوز ذلك معًا، أعدك

ابتسمت بتكلّفٍ، ثم أردفَت قائلة:

- لماذا توقفتِ عن زيارة المنزل؟

تنهدتُ، أغمضتُ عينيّ وقُلت:

- لقد استجمعتُ قواي مرةً، فطلبتُ من ماجد أن نمرّ بجوار المنزل، شعرتُ في تلك اللحظات بأن الألم يختلج مشاعري، فقد كان الصمت يسود جدرانه، والغبار كان ركامًا على نوافذه وأبوابه، وأخذت أدنو من الباب الحديدي، ومرّ علي شريط الذكريات كطيفٍ من السراب، ورحتُ أتذكّر العهد الذي قطعناه أنا ونورة عند عتبة الباب عندما وضعتُ خنصري في خنصرها تأكيدًا على تمام الوعد، وتراءى لي ظلّها فتبعتُه وأنا أركض،

بينما كنتُ أسمع صوت نداء ماجد لي بالعودة، وأنا أستمرّ بالركض في سباقٍ مع فرصتي بلقاءٍ أخيرٍ معها، اعتليتُ الدرجة الأولى ثم الثانية، فهبّت ريحٌ قويّة خلعَت الباب الخارجيّ ففُتح على مصراعيه، وهُنا تلاشى ظلّها، وفي لحظةٍ خاطفة التفّت حولي قطةٌ فصرختُ فزعة، ثم سقطتُ وتبعني ماجد.

تنفّست بقوةٍ حتى ارتفع نهداها وهبطا كالموج ثم علّقَت قائلة:

- أمّا أنا فتوقّفتُ عن زيارة ذلك المنزل، منذ اللحظة التي اعتادت بها أقدام صالحة على الذهاب منه والمجيء إليه.

رفعتُ حاجبيّ باستغرابٍ وسألت:

- وهل حدَث بينكما نوعٌ من المشادّة الكلامية بعد الحادث؟

أجابت:

- لم تتوقف صالحة يومًا عن تحميلي ذنب الانتحار، وهي لا تزال تُبحر في بحر الأوهام والشُّكُوك مُدعية أن خلف انتحار نورة قصة حب انتهت بطريقة مأسوية.

قالت ذلك وهي ترفع رقبتها مستنكرةً احتمالية حدوث ذلك.

قاطعنا اتصالُ عمي سعيد، الذي أخبرها أنه ينتظرها عند الباب، كنتُ أُشير لها وهي تتحدث إليه عبر هاتفها الخلوي بأن تقوم بدعوته لدخول المنزل، وعلى غير عادته، ودون إلحاح، لبى الدعوة.

كان يرتدي ثوبًا مائلًا للون الأصفر يغطي كعب قدميه، ترك

الزرَّين في أعلى ثوبه مفتوحين، لذا فجزء من ملابسه الداخلية البيضاء كان واضحًا، عمي سعيد الذي كان دقيقًا جدًّا في مظهره، يحتذي حذو والده فيما يخص الأناقة تغير تغيُرًا جذريًّا، كانت لحيته غير مُشذبة وقد ترك الشعر الأبيض يظهر على وجهه دون أن يغطيه بالصبغة السوداء كما كان يفعل، ربما الحزن نوعٌ من الإدمان، ما أن تدمن عليه تبدأ حياتك في الانحدار، ابتسم بصعوبة بالغة ومن خلف نظارته كانت نظراته المنكسرة تترك في نفسك شعورًا بالشفقة تجاهه.

جلس على الأريكة مقابل زوجته ورفض شرب القهوة وعوضًا عن ذلك طلب مني كوبًا باردًا من الماء، شبك يديه خلف رأسه وأغمض عينيه، كان شعر قمة رأسه قد بدأ بالانحسار والتساقط مُتخذًا شكل حرف (M) أما باقي رأسه فقد كان مليئًا بالفراغات التي خلَّفَها الصلع.

سألته عن حاله فأومأ برأسه دون أن يتكلم، إشارة إلى ألَّا رغبة له بخوض أي حديث معي، كان كمن أُجبِر على تلبية دعوتي، نظر إلى ساعته أكثر من مرة ثم تنهد، ابتسمت له بلطف ثم علقت:

- يبدو أن هناك موعدًا مهمًّا تنتظره، أرجو ألّا أكون قد قمت دون قصدٍ بتعطيلك عنه.

هز رأسه نافيًا ومرة أخرى لم يكن هناك ما يقوله لي.

على الرغم من أن علاقتي بأعمامي كانت سطحية لكنني على الأقل كنت أعرف السمات الأساسية لكل واحدٍ منهم،

وحتمًا لم يكن عمي سعيد على هذه الحال من قبل، كان سريع الغضب والتوتر وكثير الشك، يطلب شيئًا وعليك أن تنفذه دون أن تسأله عن السبب وإلا لاستشاط عليك غضبًا دون أن يكترث للمكان الذي سيصبُّ جام غضبه فيه على ضحيته ودون أن يفكر حتى في الإحراج الذي سيتسبب به لزوجته أو لنورة، كانت نورة دائمًا ترفض الخروج معه بأي حال من الأحوال حتى لو كان الأمر طارئًا ففي مرات كثيرة تحولت سعادتها الصغيرة التي تذهب بها إلى السوبر ماركت أو المركز التجاري إلى إحراج كبير.

أذكر أنها أخبرتني مرة عن موقف بينها وبين والدها، حينها كانت نورة قد أصرت على مرافقة والديها إلى السوبر ماركت لشراء مستلزمات الشهر، أخبرتني بصوتٍ مرتجف وعيناها شاردتان وكأنها تستحضر الموقف من جديد بكل تفاصيله، قالت لي وهي بالكاد تبتلع ريقها:

- لم أفعل شيئًا يا زهراء، جلُّ ما في الأمر أنه كان يمشي أمامي فصدمت بعجلات عربة التسوق قدمه. ثم رفعت سبابتها وهي تكرر: والله.. والله لم أقصد فعلها!

ثم لبرهة من الزمن ظلت صامتة قبل أن تنطق بنهاية الحدث، كأنها كانت تستجمع كامل قواها لكي تتمكن من الحديث مرة أخرى، قالت بصوتٍ خافت:

- لا يمكنك تخيل ما فعله بي أمام الناس، لقد حمل عقاله بيده وحاول جلدي به لولا أن المحاسب هرع سريعًا لنجدتي!

أذكر جيدًا كيف فتحت نورة عينيها على اتساعهما وهي تردد:

- والدي شخصٌ لا يمكن ترويضه ولا يمكن توقُّعه!

لم أكن أرى عمي سعيد بعين نورة وحسب بل من خلال شخصية موضي التي تغيرت عبر السنين، كانت من النساء القويات، طباعهن هادئة لكنهن سريعات البديهة، لم تكن ترضى بأي شكلٍ وتحت أي ظرف المهانة على نفسها – هكذا كان يصفها جدي - لكن زواجها أعاد تشكيل شخصيتها على نحو ملحوظ فقد صارت شخصًا يناقض نفسه القديمة ويرمي بمبادئه وكرامته عرض الحائط في سبيل المحافظة على عش الزوجية، شخصٌ مكتئب ويائس يشعر دائمًا بالعجز ولا ينتابه أي شعور بالتقدير للذات.

ضرب عمي سعيد بيديه على فخذيه ثم تنحنح كأنه يحاول إيقاظي من شرودي، ردد:

- حسنًا علينا أن نغادر الآن، فالوقت قد تأخر.

شكرته على تلبية دعوتي رغم إصراري المسبق عليهما بأن يشاركاني تناول العشاء لكنه رفض وتعلل بتأخر الوقت وبأن وجبة الغداء قد أصابته بالتخمة.

قَبِلتُ عذره على مضض، ثم حملتُ يزن الذي غط في نومه من على الأريكة إلى سريره.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة، اعتدت بعد ولادتي بيزن ألّا أنتظر ماجد، فهو يتأخر دائمًا خصوصًا في

عطل نهاية الأسبوع التي يجيء بها إلى المنزل وقد أشرقت شمس اليوم التالي.

حرصتُ على إطفاء أنوار المنزل عدا النور الذي عند باب الشقة، كان الصوت في رأسي يلحُّ عليّ بشكل مستمر أن أتصل عليه لكنني لم أخضع له، فغالبًا ما يرفض مكالمتي أو يُغلق هاتفه مباشرة بعد أول اتصال لي، لقد ردد علي بشكل مستمر عبارة: نهاية الأسبوع لي، أتصرف بها بالطريقة التي أريدها، لا تتصلي علي حتى في حالاتك الطارئة. كانت تلك العبارة ترن في أذني كلما هممت بالاتصال به كنوع من التحذير.

جلستُ على الأريكة ومددت قدميّ، شرعت بقراءة كتابٍ جديد، لم تكن لي أي نية في النوم فقد استيقظت اليوم متأخرة ولو لم يباغتني الكابوس المعتاد لكنت استغرقت في النوم لساعات أطول.

في كل يومٍ كنت أتحدى نفسي بإكمال قراءة كتاب كامل دون أن يطرف لي جفن، كأني أعاقب نفسي على الوقت الذي أهدرته ولم أرتد به المدرسة، ثم تباغتني نورة بوجهها اللطيف وضحكاتها العالية وهي تحمل بيديها أكواب شاي أهدتها إياها المعلمة لأنها حصلت على الدرجة الكاملة، ما زلتُ أحتفظ بكوبِ شاي أهدتني إياه، كان يزينه قلب كبير ويتوسط القلب حرف (A)، ليس حرف نورة ولا حرفي لكنه شيءٌ جمعنا معًا، آهٍ لو تعودين يا نورة وتلمحين وجهي الشاحب وتستمعين لنبضات قلبي التي تثاقلت من بعدك، كل شيء تغير، جدران

منزلنا، سطح منزلكم، طعم سجائرنا، الأغاني التي سمعناها معًا، الأفلام التي بكينا عليها، أقلام الحمرة التي سرقناها من تسريحة والدتك، حتى والدك الغاضب روَّضه غيابك..

(29)

تقول أمي إنني على عكس كل الأطفال لم أبكِ عندما وُلدت أعتقد أنني استهلكت كل سعادتي في تلك اللحظات.

استيقظتُ بتكاسل، وأنا أشعر بتوعّكٍ في معدتي والسبب هو صحن الفلافل الذي تناولته البارحة، حملتُ هاتفي، إنه يوم مولدي ٢١ من شهر مارس، نظرتُ إلى نصف وجهي المنعكس على المرآة أعلى تسريحتي والتي كانت تُقابل منتصف السرير، أما النصف الآخر من وجهي فكان ينعكس كظلٍّ على الجدار نتيجة تسرب أشعة الشمس من ستائر الغرفة المُخرمة، أتأمل وجهي المنشطر لنصفين متضادين، أما روحي ففي منطقة الحياد تلك التي يسمونها المنتصف. تعلمتُ جيدًا خلال السنتين الماضيتين كيف أتكيف مع هذه المنطقة، كيف لا أهدر كامل انتباهي، ولا أركض بأقصى سرعتي، كيف أعود من منتصف الطريق، وأحمل معي نصف أمل، ونصف ضياع، وشيئًا يشبه الحب، كيف أقف بقدم واحدة ووجهي إلى الجدار، كيف أحتضن بيدٍ واحدة، وأُقبِّلُ بطرف شفاهي، وأبكي بحزن مكتوم، وأضحك من نكتة سخيفة، كيف أمنح جسدي وأعلق روحي خلف الباب، كيف أترك باب الجفاف مواربًا لبلل جديد، تعلمتُ أن أرضى بنصف الفوز وأحتفظ بنصف الخسارة، هذه ليست الحياة التي حلمتُ بها لكنني رضيتُ بنصفها الآخر..

في الجانب الآخر من السرير، كان ماجد مستلقيًا شبه عارٍ، وأنا متكوّرةٌ إلى جانبه، مرر أصابعه بخفة في شعري، كان يدنو مني شيئًا فشيئًا، وأنا بجسدٍ متصلّب، وعينين فاترتين

يكسوهما البرود، أشبه بمرآةٍ لا يمكن النفاذ إلى ما وراءها، بينما كان يغمرني بقُبلاته، وكأنه يغرس كل بذوره في أرضٍ قيعان، وأنا أردد في نفسي: فلتنتهِ هذا الأمر سريعًا.

عشتُ طوال حياتي وأنا أشعُر بأنني أجترحُ إثمًا عظيمًا، وها أنا ذي في طريقي للعشرين، بطفلٍ واحد ورجلٍ يغطّي نصف حاجتي للجنس، بينما يتركُ جوفي فارغًا، برفقة عدة خيبات، حيثُ لا نورة هُنا لتفرش كيس بطاطس «ليز» على الأرض، وتحمل معها المثلّجات الملوّنة والغازيات للاحتفال بعيد ميلادي، لا شيء سوى عددٍ آخر اكتسبتُه من عُمري.

كان يزن يغط في نوم عميقٍ في سريره الأزرق الصغير بحواجز جانبيّة تحميه من السقوط، إضافةً لشبكةٍ واقية من لدغات البعوض ومظلةٍ صغيرة تحجبُ وجهه، اقتربتُ منه بينما كان قلبُه الصغير يخفق بقوة، يمكنك ملاحظة ذلك من قميصه الأبيض الذي راح يهبط ويعلو بسرعةٍ هائلة، وضعتُ إصبعي في ملء يده، قبض عليه بقوّةٍ وهو يتثاءب، فظهَرت أسنانه التي كانت على أهبةٍ للخروج، ثم راح يحرّك أقدامه على طريقة البدال مبتسمًا، وكأنه يقود درّاجَةً هوائية، توقف عن اللعب لبرهةٍ من الوقت، جلس في منتصف سريره فارتطم رأسه بالمظلة بينما كان يحاول جاهدًا إخراج رأسه منها والالتفات يَمنةً ويسرة لتفقّد المكان، دُمية القرش القطنية المرتمية أسفل قدميه أصدرت صوتًا مضحكًا، راح يقفز في سريره من فرط الحماسة، صفّق بيديه، ثم نظر لماجد وعيناه تتّسعان، لوح له دلالة على استيقاظه.

«إنه يوم مولدك، افعلي شيئًا غير اعتيادي».

هكذا حدّثتُ نفسي، ارتديتُ فستانًا عنّابي اللون، من المخمل، طويل الأكمام، بأجزاء مطوية على الخصر، وقصّةٍ ضيقة ترسمُ حدود الجسد، ثم زينتُ عنقي بعقد من اللؤلؤ.

وضعتُ أحمر شفاهٍ بلون الفستان، واستعملت قلم حُمرة بلون بنّي وطبّقته على ثنية العين، ثم استعنت بريشةٍ صغيرة ووزّعته كظلالٍ للعيون، ومرّرتُ اللونَ الكحلي على الزاوية الخارجية للعين، ومرّرتُ الكحل الأسود داخل بطانة الرمش السفلي، ثم موّهت أسفله بالظلال البنيّ الفاتح، كثّفت رموشي بالماسكارا، وبلمسةٍ من أحمر الخدود أكملتُ الإطلالة.

لبستُ عباءتي، أخرجتُ من غطاء رأسي بضع خصلات، أخبرتُ ماجد أنني سأذهب، وسأتأخر في العودة، لم يلقِ بالًا، طلبتُ منه الاعتناء بيزن ولم أُعلق آمالًا كبيرة على ذلك، فقد كان رفضه قاطعًا كما توقعت.

حملتُ يزن في أحضاني، وأحضرتُ حقيبة مستلزماته الكبيرة، ثم توجّهنا بسيارة أجرة إلى طريق الملك الفيصل الذي يبعد ٣٥٠ مترًا من محطة القطارات، نزلنا في فندق مارلين، جلستُ في الردهة، مرّ إلى جانبي شابٌّ خمنت أنه في مقتبل العشرين، نظر لوجهي نظرةَ إعجابٍ مطوّلة ثم غمز لي بعينه مغازلًا.

شعرتُ بحرارةٍ في أذني، توردّت وجنتاي خجلًا حتى لوحظ ارتباكي، بصعوبة رفعت المجلة على الطاولة أمام وجهي حتى

استسلم وغادر، ثم توجهت لقسم الاستقبال، جاهدتُ لئلا يخرج صوتي المرتجف من فرط الارتباك، طلبتُ تجهيز يوم ميلادي فقدّموا لي ورقةً طلبوا منّي كتابة العُمر والاسم، انتظرتُ على الكرسيّ بينما راح يزن يلعبُ في الزّينة البلاستيكية الرخيصة التي وضعت على الطاولة الزجاجية هناك، ها قد أتى فريق الاحتفال، بأهازيج الميلاد المعتادة، حاملين معهم قطعة كعكٍ من اللوتس تتوسّطها شمعةٌ بلونٍ أحمر.

يزن يصفق بيديه تقليدًا للعمّال، أطفأت الشمعة بينما كنتُ أصلي لله من أجل أن يبدّد هذه الوحدة، نعم، أنا المرأة التي تحتفل بميلادها العشرين مع ابنها.

راودتني فجأة فكرة مجنونة وهي أن أحجز غرفة في الفندق وأهرب ولو ليومٍ واحد من المنزل ومسؤولياته، ودون أن أقلب الفكرة في رأسي جيدًا وأمنحها حقها في التفكير بها، أخرجتُ بطاقتي وحجزتُ غرفة بسرير مزدوج.

قرعتُ جرس المصعد، كان الجو خانقًا في الداخل، إضافةً لطبيعة المصعد الحاجبة، حين وصلنا للطابق الرابع، رشقتُ المكان بنظرة خاطفة بتذمر تمتمت: «حتى في يوم مولدي حصلتُ على نصف الذي أتمناه»، فالغرفة ضيقة، تفوح منها رائحة التبغ، ومكيّف الهواء قديم ولم تكن المُرشِّحات نظيفة فبينما كان الهواء يدور يمكنك الشعور برائحةٍ راكدة، أما السرير فلا يُغريك بالنوم مطلقًا، كانت الوسادات قاسيةً للغاية، وفاحت من الحمام رائحة النفثالين، أما لون الستائر البنيّة فأوقع الكآبة في نفسي، التلفاز معطّل، والإضاءة رديئة.

جلستُ على طرف السرير، بينما كنتُ أحدّق في السقف الذي كانت تتدلّى منه نجفة في حالةٍ يرثى لها، كان الصدأ قد شنّ هجومًا عنيفًا على أطرافها، حملتُ يزن في أحضاني، ثمّ رحتُ أردد له بضع أهازيج فغلبه النعاس حتى نام.

وقفتُ قُبالة النافذة التي كانت توجد أعلى المنضدة الخشبية، ورفعت ستار القماش الذي كان يتدلّى فوقها، كان الجو غائمًا فوق الشجيرات، ورحتُ أتأمل الرياض، مدينة صلفة وقاسية، لا شيء فيها يحفظ للمساء حقه، رحتُ أراقب الأرض الخاوية المُقابلة للفندق، سكونٌ لا يقطعه إلا أصوات إطارات السيارات على الطريق، وبينما كنتُ أتأمل راح ذهني يلهجُ بالأسئلة، كم مرّةً هربنا بها؟ لا أقصد المرّات التي تجاوزَت بها أقدامك عتبة منزلك للخلاص من الآخرين، إنما المرّات التي هممت بها في الهرب من ذاتك، في كلّ مرةٍ تطوي بها تاريخ مولدك في الرزنامة للاحتفال به، أو ربّما لتذكير رفاقك، وحين يأتي، تُكْمل خوض اللعبة التي بدأت، وتستمرّ في كتابة «عام سعيد لي»، على مواقع التواصل، وتلقّي التهاني من أشخاصٍ افتراضيين يتمنّون لك الخير، وكأنه أمرٌ محتّم الوقوع لإكمال الجولة العشرين أو الثلاثين من هذه اللعبة، وتضحك، رغم أنهم دسّوا سكاكينهم في خاصرتك، وتصافحهم، رغمًا عن الأيادي التي تلطّخت بدمائك، ولا تكمن المعضلة في عدم انتباهك، إنّما في عدم قدرتك على الرفض، ولربّما أحببتَ خوض هذه اللعبة لئلّا تبقى وحيدًا، لذا تستمرّ في الهرب من أوقات الفراغ التي تختلي بها، ثمّ تنتابك نوبةٌ من الهلع وتبحث عن أعراض الفراغ المؤذية على شبكة

الإنترنت، وتشعر أنك مصابٌ ربّما، بهلوسةٍ ما، والأمر لم يكُن منذ البداية في الفراغ أو عدمه، إنما في هربك المستمرّ من مواجهة ذاتك.

لا أريد حدوث معجزاتٍ كونية في هذا العام وسأعيد لك هذا العمر الذي منحتني إياه يا الله، في يومٍ ما، في الغد، أو بعد الغد، فهذا أمرٌ محتوم، لا رغبة لي في ابتكار لغةٍ جديدة طالما سأُبقي فمي محشوًّا بكل الذي لا تسعفه اللغة، امنحني حسن الحظ.

أزلت المكياج بمنديل الأطفال المرطّب «جونسون»، ثم رميتُ بجسدي على السرير وقد بدا في غاية الصلابة، حتى اعتقدتُ لوهلةٍ أنه محشوٌّ بالرمل والحجارة وليس القطن، نظرتُ لشاشةِ هاتفي حيث لا رسائل ولا مكالمات من ماجد، في الغالب لا يمكنك لفت انتباه شخصٍ لا يراك بالأصل، وما هي إلا بضع ساعات حتّى انقشعت ظلمة الليل بخيوط الصباح، استيقظتُ وشعوري بفقرات ظهري يكاد ينعدم من فرط الألم، شعرتُ بوجعٍ في ثديي إذ إنني لم أُرضع يزن إلا شهرين، صدري طافحٌ بالحليب ويفيض بي، وحمّالة الصدر تضيق، حضّرتُ ليزن قنينة حليب وارتديتُ عباءتي متوجّهةً لصالة الاستقبال، كان الرجل مصري الجنسية يرتدي كنزةً بيضاء وسترة زرقاء (الزي الرسمي للفندق)، بدَت عليه ملامح التعب والكآبة، ألقيتُ نظرةً خاطفة على شاشة هاتفي فلم أجد أي مكالمات فائتة أو رسائل، شعرتُ بنوعٍ من الارتياح الذي يصحبه شعورٌ باللاجدوى، كأن تصرخ في مكانٍ فارغ ولا يرد عليك إلا صدى صوتك.

طلبت سيارة إلى المنزل، أملتُ رأسي على النافذة ولمحت الشوارع المزدحمة، والمحال الصغيرة والمساجد والبيوت التي يشبه بعضها بعضًا، شغل السائق الراديو، كانت المذيعة في محطة الأخبار تُشير إلى احتمالية هطول الأمطار على مناطق معينة من المملكة خلال الأسبوع الحالي وستشهد المنطقة أمطارًا غزيرة ثم قَرَأَت تحذير الدفاع المدني لأخذ الحيطة والحذر.

ترجلتُ من السيارة بعد رحلة دامت لنصف ساعة، لم ألمح سيارة ماجد مركونة أمام العمارة، هممت وأنا أخرجُ المفاتيح من السحاب الخلفي للحقيبة بصعوبة بالغة حيث كنت أستخدم أطراف أصابعي بينما كان يزن يضع رأسه على كتفي ويتثاءب، عبرت الفناء الخارجي إلى السلالم وأخيرًا إلى شقتي في الطابق الأول، دخلت إلى الشقة وللوهلة الأولى ظننت أن أحدهم اقتحمها، كانت تفوح منها رائحة قذرة والعبوات البلاستيكية الفارغة تملأ أرجاء الصالة، دخلتُ إلى المطبخ حيث خمنت أن الرائحة قد انبعثت من هناك وفعلًا لم أخطئ في ذلك، وجدت الأطباق مكوّمة في مغسلة المطبخ وكيس القمامة ممتلئًا بعلب البيتزا الكبيرة التي بالكاد اتسعت لها حاوية القمامة الصغيرة.

كان يساورني شعورٌ بالملل والرتابة ويغالبني النعاس، وضعتُ يزن في مقعده الصغير حول طاولة المطبخ وأعددت له صحنًا صغيرًا من السيريلاك الذي وضعه في كل مكان إلّا في فمه، كنت أغسل الصحون وألتفت إلى يزن بين الفينة والأخرى

بينما عقلي مشوش، فكرة تدفع الأخرى، إن كان ماجد قد دعا أصدقاءه إلى المنزل ليسهر معهم فهذا يعني أنهم جلسوا لوقت متأخر، وهذا ما زاد من خوفي، لا بدّ أنه اكتشف أمر هروبي، طردت هذه الفكرة حين خرج صوتٌ آخر من عقلي يعارض الأول، ربما لم ينتبه للوقت فلو شعر بهروبي لاتصل عليّ، كل الأصوات التي في رأسي منحتها حق الكلام إلا الصوت الذي يقول: «هو لا يشعر بوجودك أصلًا، أنتِ بالنسبة له كائن خفي».

فتحتُ النوافذ وشغلتُ أجهزة التهوية، وندمت كثيرًا لظني أن الحياة منحتني بضع سويعات. حالما ألقيتُ بجسدي المنهك على الأريكة، شعرتُ أن أعضائي قد تفككت كقطع الأحجية، طمأنتُ نفسي بالعبارة المعتادة: هناك مَن هو أسوأ منكِ حالًا، ثم أستعرض مجاعات أفريقيا وحروب العالم وأطفال السرطان وأتنهد بارتياح، ثم أسأل نفسي بامتعاض: أليست هذه أنانية؟ أن تشعرني مصائب العالم بنوع من الرضا عن سوء حياتي؟ أضع ذراعي اليمنى على عيني وأحجب عن نفسي رؤية أي شيء، هناك نوعٌ من السلام حين تُغمض عينك ولا تفكر، أن يكون ذهنك خاليًا تمامًا.

يحاول ماجد فتح الباب، ولأنني نسيتُ المفتاح في القفل نهضتُ لأفتح له، لملمتُ أشتات نفسي المنثورة واستعدت رباطة جأشي وأنا أدير المفتاح، قال: مرحبًا ثم ترك حذاءه على عتبة الباب دون أن يكلف نفسه عناء وضعه في المكان المخصص للأحذية والذي يبعُد عن الباب بضعة سنتيميترات

فقط!

حملتُ الحذاء ووضعته في درج الأحذية، لحقته إلى غرفة النوم، كان يُخرج ثيابه من الخزانة وكأنه فقد شيئًا، لقد تحولت الغرفة في ثوانٍ إلى سوق شعبي، سألته وأنا ألملم الملابس من على الأرض:

- عن ماذا تبحث؟

أجاب بتململ واضح:

- ثوب نوم اشتريته قبل أيام.

سألته:

- الثوب الرمادي؟

نظر نحوي باهتمام ثم أجاب:

- نعم

فتحتُ أحد الأدراج التي وضعتُ بها ملابس نومه وأخرجت له الثوب، ثم علقت:

- أخبرتك أكثر من مرة أن ملابس النوم في هذا الدرج، لا أعلم لماذا عليّ إعادة كلامي أكثر من مرة؟

حين أغلقتُ باب الخزانة لم يكن موجودًا، لقد غادر الغرفة منذ زمن وتركني أحادث نفسي.

من الغرفة المجاورة رفع صوته وهو يقول:

- زهراء، أتعلمين أن التي استأجرت المُلحق الذي بالسطوح

امرأة؟

لحقتُ به إلى الغرفة المجاورة وسألته في اهتمام:

- امرأة عازبة؟

أجاب:

- نعم!

لقد انتقلَت إليه بالأمس، طوال مدة التجهيز للمُلحق غاب عن ذهني أن أسأل أبا وليد عن هوية المستأجر الجديد، لكن يبدو أني الوحيد الذي لم يكن يعلم.

سألته باستغراب:

- وما الفرق إن كان المستأجر رجلًا أو امرأة؟

حك رأسه ثم قال:

- حقًا لا أعلم لكنني استغربت كيف تسكن امرأة عزباء وحيدة مُلحقًا أعلى السطوح، فهو ليس بالأمر الذي اعتدناه هنا كما تعلمين.

علّقتُ:

- حسنًا سأزورها في الغد وأرحب بمجيئها.

حنى رأسه مستحسنًا الفكرة.

(30)

نضجنا خلسة، احتراقٌ في الداخل خلّفنا رمادًا.

مساء اليوم التالي بعد صلاة العصر في مدينة الرياض، أتوجه إلى أحد محلات الحلويات الشهيرة وأشتري علبة كبيرة من المعجنات والحلويات، في الطريق أتوقف عند مركز تجاري لبيع الأواني وأشتري طقم شاي. لقد تركت يزن عند والده قُبيل زيارة جارتنا الجديدة وقد وافق على ذلك شريطة ألّا أتجاوز نصف الساعة.

حملتُ العلبتين وضغطت على الرقم خمسة في المصعد وبعدها أكملتُ طريقي نحو السطح باستخدام السلالم، كان السطح نظيفًا والأجواء رغم برودتها كانت رائعة على نحو غريب، طرقت الباب مرتين متتاليتين.

بعد نصف دقيقة تفتح الباب. الساعة تقريبًا تتجاوز الخامسة مساءً، ترتدي كنزة صوفية طويلة الكمين حليبية اللون وبنطال جينز باللون الزيتوني.

كان الظل يغطي نصف وجهها لذا لم أميز ملامحها جيدًا وهي تقف على عتبة الباب، دعتني إلى الداخل، كانت شقة من حجرتين ومطبخ وحمام، أرضية من الباركيه الرخيص التي تصدر صريرًا كلما مشيت عليها لكنها أضافت لمسة جمالية للمكان.

حمَلَت العلب التي أحضرتها لها ووضعتها على منضدة المطبخ، ولأن الشقة صغيرة كان بإمكانك أن ترى كل الغرف،

مدت يدها لتأخذ عباءتي ثم علقتها على علاقة سوداء مركونة في زاوية غرفة الجلوس.

كان منزلها نظيفًا وجميلًا، كل شيء فيه تم وضعه في المكان المناسب، وأكثر ما جذب انتباهي هو اللوحات المُعلقة على الجدران، كانت الأعين في تلك اللوحات تُظهر بؤسًا لا يمكن إنكاره، تتوسط غرفة الجلوس سجادة فارسية ذات رسوم وزخارف متناسقة تعلوها طاولة سوداء وُضعت عليها صحيفة ومطفأة سجائر ضخمة، أما مُقابل الأريكة الوثيرة فمكتبة مُثبتة على الجدار، لا يتجاوز عرضها الستين سنتيمترًا أما طولها فكان على امتداد الجدار تقريبًا، تاركة مساحة للوحة متوسطة الحجم أعلى المكتبة لفتاة لها العيون البائسة ذاتها لكن شفتيها تفتران عن ابتسامة واهنة، شعرها أسود اللون وترتدي فستانًا أحمر وخلفها بالونة حمراء يتكوم داخلها طفل رضيع كأنه في رحم أمه، تتمايل الستارة البيضاء الصغيرة على الجانب وأتحسس ببطء قماش الأريكة الكريمي، أغلق عيني وأتنهّد، أتعمق في اللوحة وينتابني شعورٌ بأنها تخصني، كل رفٍّ من الأرفف كان مُزينًا بأصص صغيرة من النباتات تضفي على المكان رونقًا فريدًا.

قاطعت لحظة السكون والتأمل حين خرجت من المطبخ وهي تقول:

- أعتذر تركتكِ تنتظرين، كانت تحمل بيدها اليسرى ثلاجة قهوة أما بيدها اليمنى حملت أكوابًا كرتونية صغيرة مخصصة للقهوة العربية، رائحة الهيل والزنجبيل تملأ الأرجاء.

كان شعرها القصير الصبياني يكشف عن ملامح وجهها بطريقة مثالية تنسدل غرة شعرها الناعمة على وجهها حين تنظر إلى الأسفل، وبين الحين والآخر تلاحظ ذلك فترجعه بأصابعها خلف أذنها، رسمت خطًّا عريضًا على الرموش العلوية لعينيها اللوزيتين بالكحل السائل فبدت كأنها قطة ، أنفها الدقيق يعلو شفتين صغيرتين لكنهما مكتنزتان، يتدلى من أذنيها قرطان طويلان فضيان وثمة ابتسامة خفيفة لا تفارق شفتيها، يوحي لي تناسقها هذا بلحنٍ مألوف لمقطوعة موسيقية مُحببة، تستعيد معه ذكريات جميلة، تشعر نحوها بأُلفة صديق قديم.

قدمت لي كوب قهوة يتصاعد منه البخار ثم فجأة وكأنها تذكرت شيئًا ركضت نحو منضدة المطبخ وقدمت لي علبة المعجنات والحلويات التي جئت بها.

عرفت عن نفسها في حماسة:

- أنا فاطمة

ابتسمت ابتسامة عريضة وقلت:

- وأنا زهراء، تشرفت بك.

سألتني:

- في أي طابق تسكنين؟

أجبتها وأنا أرتشف القهوة:

- في الطابق الأول.

عم صمتٌ بيننا قاطعته بعد دقيقة تقريبًا بشكرها لي على

الهدية.

أجبتها بابتسامة تعني: «على الرحب والسعة».

سألَت:

- كيف هم الجيران هنا؟

أجبتها:

- كما تعلمين، في مدينة كبيرة كالرياض لا أحد يعلم بشأن الآخر ونادرًا ما نتزاور.

تفكر في الأمر لفترة ثم تقول:

- لقد انتقلت للتو من الخُبر بعد أن تم قبولي في جامعة الملك سعود بقسم الأشعة، لذا لا أعرف ما هي طبيعة الأشخاص هنا.

أجبتها:

- الرياض كأي مدينة فيها أشخاص من كل نوع ومن كل جنس، لا يمكنني أن أصف لك الأمر أكثر من ذلك، فهي مدينة كبيرة وتعدادها السكاني في ارتفاع، ليست هناك سمَة معينة واضحة يمكنني أن أصف بها الجميع، خصوصًا وأن حدود حياتي لم تتجاوز حدود المنزل.

سألتني بارتياب:

- ألم ترتادي جامعة الملك سعود؟

هززت رأسي وقبل أن تسأل عن الجامعات الأخرى أجبتها

بذبول:

- لقد توقفت عن الدراسة منذ الصف الخامس الابتدائي.

قالت:

- أنا الآن في الثلاثين من عمري وبعد طلاقي قررت أن أكمل تعليمي الذي تركته وأسعى خلف حلمي الذي لطالما حلمتُ به.

فتحتُ عيني على اتساعهما وأنا أسألها:

- في الثلاثين؟! لقد ظننت أنكِ في بداية العشرين.

ضحكت بخجل ثم علقت:

- هكذا يقولون، ربما السبب في ذلك هو أنني لم أنجب أطفالًا بعد.

أومأت برأسي موافقة ثم قلت:

- أنا أم وأفهم جيدًا ماذا تقصدين، فبعد أن تلدي ولادتك الأولى يتغير شيء في أعماقك يضفي عليك لمحة من النضج التي لا يمكنك محوها.

ابتسمت ثم قالت:

- حقًا؟ أرجو أن تحضري طفلك معك المرة القادمة، أنا متفرغة هذا الفصل وليس لديّ ما أفعله إلا الذهاب إلى الصالون بعد العشاء.

سألتها في ارتياب:

- لماذا فضلتِ السكن في الملحق على السكن الجامعي

طالما أنكِ تشعرين بالوحدة؟

تنهدت ثم أجابت:

- إنها قصة طويلة يا زهراء، لا أريد أن أصيبك بالصداع في أول زيارة لك هنا.

لتلطيف الأجواء سألتها عمن رسم اللوحات.

بحماسة سألت وهي ترفع رقبتها وتجيل نظرها في المكان بينما يتأرجح قرطها جيئة وذهابًا:

- هل أعجبتك؟

أومأتُ بإيماءة نابعة من صميم فؤادي.

أجابت بفرح:

- أنا رسمتها

كنت بصدد سؤالها عن سبب رسمها العيون بهذه الطريقة المميزة لكن اتصال ماجد قاطعنا، كان يُلح عليّ بالقدوم لأن يزن بدأ بالبكاء دون توقف منذ ربع ساعة تقريبًا.

سألتني بخيبة:

- هل سترحلين الآن؟

أجبتها:

- نعم، لا عليك المرة القادمة عليكِ أن تردي زيارتي وتُشرفي بيتي.

ردت وهي تُقبل خدًّا وتنتقل للآخر:

- بالتأكيد.

ارتديت بسرعة عباءتي ونزلتُ إلى المنزل وبداخلي شعورٌ لا يمكن وصفه، نوعٌ من السعادة الجديدة أو الارتياح لستُ واثقة، لكنه كان شعورًا جيدًا.

عدتُ إلى المنزل، فتحتُ الباب فأقبل يزن يسابق خطواته في براءةٍ وجذلٍ نحوي، تارةً يسقط وتارةً يقف، حملته ثم طبعتُ على جبينه قُبلة، رمقَني ماجد بنظرةٍ حادّة وهو يقضم قطعة خبزٍ يابسة، ثم قال باقتضاب:

- حضّري العشاء.

حملتُ يزن في يدي اليسرى لأحضّر له قنينة حليب، بينما كنتُ أقطّع صدور الدجاج باليد اليُمنى، أجلستُه على الأريكة في الصالة وقدّمتُ له القنينة، وضعتُ الوسائد حوله وشغّلتُ له التلفاز، لم يشأ الصغير مغادرة أحضاني البتّة، أصبح يبكي بصوتٍ عالٍ بإيقاعٍ منتظم مع مصّ أصابعه بجسدٍ متخشّب، حملتُه إلى الغرفة، أسندت رأسه وعنقه جيدًا ووضعتُ معدته على ركبتيّ ثم هززتُه برفقٍ وربّتُّ على كتفه، كان يعاني من توعّكاتٍ في معدته، احتضنتُه وأرضعته، وبعد مضيّ ما يقارب عشر دقائق أرحتُ جسدي إلى جانبه، حتى ذهب في غفوةٍ عميقة، ثم حملتُه لسريره ووضعتُ اللحاف عليه.

توجّهتُ إلى المطبخ لتحضير العشاء، قمتُ بتتبيل صدور الدجاج ثمّ قطعتها لشرائح رفيعة لتحضير طبقٍ من الشاورما،

وضعتها في الفرن، ثم زيّنتها بعد تمام نضجها بالفلفل الأسود وعلى الأطراف وضعتُ شرائح الخبز والفلفل الرومي.

على طاولة الطعام فرشتُ السفرة بعنايةٍ بالغة، ثمّ وضعتُ الطبق الرئيس في المنتصف، وإلى جانبه وضعتُ البطاطا المقلية، سحبَ ماجد الكرسيّ المقابل لي ثم جلس، بدأتُ أشاركه العشاء في صمتٍ وكأنني ارتكبتُ جرمًا حين ذهبتُ لجارتي دون أن أحمل يزن معي، وبينما كان الصمت يخيّم بيننا فوجئت به وقد أعدّ لي قائمةً مطوّلة من الانتقادات اللاذعة التي لا حصر لها على الطبق، الملح ناقص، الفلفل الأسود مبالغٌ به، نهض من على الكرسيّ ثم راح يحدّق في شاشة هاتفه، قال بلهجةٍ يمتزج فيها المزاح بالجد:

- من الجيد أن الرياض تكتظّ بالمطاعم وإلا متنا من الجوع.

أعدتُ الأطباق بخيبةٍ إلى المطبخ، ثم سحبتُ خطواتي بتثاقلٍ وذهبتُ للغرفة، ألقيت جسدي على السرير، وضعتُ رأسي على الوسادة ثم مددتُ جسمي ونظري لا يفارق السقف، إنه لمن المتعارف عليه أن جميع الذين يولدون في هذا العالم يقضون عمرهم في سداد ذلك، وكأن ولادة الإنسان هي في الأصل دَينٌ ما أن تنتهي من سداده تموت، لكنّ فكرة أن النساء يدفعن أضعاف الثمن كانت تكبُر في رأسي عامًا بعد عام، إن وجودنا في هذا العالم هو عملية تحايلٍ كبيرة لاستخدامنا كمظاهر اجتماعيةٍ وحسب، هي زوجته بالتأكيد، هذا ما سيقفز لذهنك منذ الوهلة الأولى التي نوقّع بها عقود النكاح، ونلبس خواتم في البنصر بينما لم نلمح وأحدهم يُلبسنا إياها أن الظل الممتدّ

على الحائط كان يرسم دائرةً من سلسلة تكبيل.

لذا فإن غالبية هذه العقود - المفروضة على المرأة - هي في الأصل «قيودٌ» أخرى، وسجنٌ نُحال له دون الحاجة لارتكاب جُرمٍ يقضي بذلك.

قاطع ذلك رنينُ الهاتف، حملتُه وأنا أنظر للرقم الذي ابتدأ ب +٩٠ كمفتاح، يبدو الرقم مألوفًا لي، وبعد برهةٍ خمّنتُ أنه من تركيا، جلستُ على طرف السرير ويداي بين ركبتيّ مجيبة:

- ألو، مَن هناك؟

بصوتٍ رقيق وصلت خفّته لمسامع أذني أجابت:

- زهراء، أنا والدتك مريم

اكفهَرّ وجهي ثم سألت:

- هل طلبتِ رقمي عن طريق الخطأ؟

أجابت لا مبالية:

- سأجيء إلى هنا قريبًا لزيارتك وإلقاء التحية على حفيدي الصغير وصهري الذي لم ألتقِ به.

هدأت الرعشة الوئيدة التي انتباتني فقلتُ مرحّبة:

- يمكنك ذلك بالطبع متى شئتِ، زوّديني بمعلومات الحجز كاملة.

قالت بنبرةٍ مهتاجة:

- سأفعل، أوصلي قُبلاتي ليزن.

ثم أغلَقت الخط.

(31)

في أعماقها كان هناك طفلٌ خائف، وشجرة وحيدة والكثير الكثير من المطر.

كان فجر الثلاثاء قد انبثق وبدأت الطيور تناغي، تدافعَت أسراب الحمام في السماء، حمَلتُ هاتفي وحدّقت في الشاشة، بعد ساعتين من الآن سيكونُ موعد وصول والدتي من تركيا، ارتديتُ قميصًا طويل العنق والأكمام باللون البنيّ، مشجّرَ الأطراف، وبنطالًا أسود بقصّةٍ ضيقة، سرّحت شعري الذي ما عاد مضفورًا مذ قصصتُه، ألبستُ يزن لباسًا برتقاليّ اللون منسوجًا من الصوف مع سحاب كامل من الجهة الأمامية، وتصميم مطاطي حول الأصفاد والحافّة السفلية، كانت عينا الأسد الكارتوني مرسومتين على غطاء الرأس، وفاهُه كان الفتحة، الفرو البنيّ يكسو أعلى الغطاء والأكمام، كان يبدو كملاكٍ صغيرٍ رغم شراسة ردائه.

اتصلتُ على والدي، أكّدْت عليه ضرورة مجيئه اليوم رغم أنني كنتُ قد أخبرته بذلك قبل ثلاثة أيام، إنّه لا يملك أدنى فكرة عن قدوم والدتي.

غسلتُ الثياب المتّسخة، غيّرتُ بياضات الأسرّة، كويت القمصان، وضّبتُ الغرف توضيبًا جيدًا، رتّبت الفراش ترتيبًا متناسقًا، وإذا بي أسمع صوت الجرس، حملتُ يزن وتوجّهتُ لاستقبال والدي، ثم دعوته لاحتساء الشاي، حمَل يزن عنّي وراح يغدقه بالقُبلات، جلَس على الأريكة ثم تساءَل:

- إذًا ما الذي أردتِ التحدث معي بشأنه؟

أجبتُ وأنا أشيح بنظري في الأرجاء:

- تبقّت نصف ساعةٍ لمعرفة ذلك.

استأذنتُ والدي للذهاب إلى الغرفة، اتّصلتُ على ماجد والذي كان في طريقه لاستقبال والدتي، أخبرني أنها معه في السيارة، تسارعَت نبضات قلبي، شعرتُ برعشةٍ في جسدي عبثًا حاولتُ إخفاءَها، عدتُ وجلستُ إلى جانب والدي ويزن، وما هي إلا بضع دقائق وها هو جرس الباب يرنّ من جديد.

بحيرةٍ تساءَل والدي:

- أتنتظرين أحدًا ما؟

شددتُ معدتي ورفعتُ قامتي، ثمّ ذهبتُ لأفتح الباب، دخَلت والدتي وهي ترتدي عباءة زرقاء مطرّزة بأحجارٍ لامعة عند الأطراف، أبرَزت استدارة وجهها من خلال الحجاب الرماديّ الذي كانت ترتديه على رأسها دون الوجه، كانت تضع حُمرةً باللون الزهريّ الفاتح، متورّدة الخدّين، تعلوها مسحةٌ من اللمعان كما الأثاث الجديد، أحضرت معها باقةً من الورد وعلبةً من الحلوى التركية، قفَز والدي من مكانه مصدومًا، حرّك بغضبٍ عينيه وشهق في عُمق، لكنّ نظرة الغضب سُرعان ما تحوّلت لبريق دهشة، حين رآها تجلِسُ أمامه على الأريكة.

قالت وهي تجلس بوقارٍ ملكيّ:

- يا للمفاجأة، كان عليك إخباري بقدوم العزيز سالم.

لزم والدي الصمت على غير العادة، وكأن كبرياءه قد استحال لضعف كاملٍ أمامها، كنتُ أنظر إليهما وعيناي تغرقان من فرط السعادة حتّى امتزجَت وجوههما في كيانٍ واحد، شعرتُ بشيءٍ غريبٍ في صدري، مدّ والدي يده التي كانت لا تزالُ قادرةً على الإمساك بشيءٍ نحو إبريق الشاي، ثم سأل:

- وما الذي أتى بك إلى هنا يا مريم؟

أجابت بتهكّم:

- أتيتُ لزيارة ابنتي ورؤية حفيدي، إن كنت لا تمانع.

خيّم الصمت من جديد، فإذا بماجد يقطعه بسؤالي لمرافقته لإحضار وليمة العشاء، فنهض والدي وأردف قائلًا:

- أنا سأذهب، لا ترهق نفسك، وسأصطحب زهراء معي.

ركبنا السيارة، سحبَ نفسًا عميقًا وارتجف بدنه، قال في غضب:

- زهراء ما هذا التصرف الصبيانيّ الذي فعلتِه للتو؟

علا صوته مزلزلًا الأرض مكملًا كلامه:

- لا أعلم إلى أي برٍّ سترسو بنا سفينتك المثقوبة، لقد مللتُ من هذه التصرفات غير المنطقية، أنتِ الآن أمٌّ لطفلٍ وزوجةٌ واعية.

ابتلّ جسدي بالعرق، قلتُ في ارتباك:

- ولا أعلم أي ذنبٍ هذا الذي كان عليّ دفع ثمنه طوال

أعوامي العشرين، لقد رغبتُ بلحظةٍ أنانيّة واحدة تتسنّى لي بها رؤيتكما معًا في إطار عائلة، وإن كان كل ذلك محض خيالٍ فأنا أريد عيشَه.

هزّت كلماتي الباردة أعصابه المشتعلة، فانطلقَت شتائمه، ثمّ وضع رأسه على مقود السيارة قائلًا:

- علينا في بعض الأحيان التسليم للأمر الواقع، رغبتنا الشديدة بالأشياء لا تعني دومًا إمكانية الحصول عليها.

قمنا بشراء عشاءٍ منوّع من الكباب والأرز وبعض المقبّلات، ثم توجهنا للمنزل، استأذننا والدي للذهاب قبل تناوله الطعام وأخبرنا أنه في حاجة لإكمال بعض الأعمال، وبعد ما فرغنا من العشاء طلَبت والدتي من ماجد أن يبحث لها عن مكانٍ مناسب للإقامة فيه، ورغم إصراري عليها بالمبيت لديّ تحجّجَت برغبتها في الارتياح في فندقٍ ما بعد المسافات الطويلة التي قطعَتها في السفر.

ولأنها لم تخلع عباءتها منذ وصولها حمَلت حقيبتها وقبّلت يزن وشكرتنا على حسن الضيافة ثم ذهبَت.

حملتُ يزن، كانت عيناه شبهَ مغمضتين لذا ربّتُّ على ظهره قليلًا حتّى نام، وضعته في السرير، ثمّ ذهبتُ لأغسل وجهي فقد شعرتُ بحرارةٍ مفاجئة، في المغسلة، حنيتُ رأسي وضممتُ كفّي لأملأهما بالماء ثم رششته على وجهي، كنتُ أرتعش، نظرتُ للمرآة فإذا بي ألمح وجه نورة، ازداد فزعي واحمرّت وجنتاي من شدّة حرارة الدموع التي غلبت عينيّ

حتى فاضت، استدرتُ مبتعدةً عن المرآة وهممتُ بالخروج وأنا أجفف الماء بأكمامي، تصبّب العرق من جبيني بغتةً وجعلتُ أروّح بكفيّ على وجهي.

كانت أنفاسي تتسارع تارةً وتختنق تارة، والألم في رأسي يتفاقم، ألقيتُ بجسدي على الأريكة وقد أخذت تتراصّ في عيني الأشياء، الأباجورة، السقف المزخرف، الجدران الباهتة، كانت الأرض تدور من حولي، ماذا لو أرادت نورة تحذيري؟ لربّما كانت ستوقفني عن إتمام هذه الخطّة الساذجة.

مرّرتُ أصابعي على وجهي وأنا أتساءل: لمَ نطمح لتكوين عائلة؟ ماذا يعني أن أُقحم أفرادًا جددًا للعمل في شركةِ الحياة التي ستكون تحت رئاستي؟ ما المتعة في قمع شخصية أحدهم وهدم كيانه ونزعه من جذوره لغرس آخر لا يمتُّ له بصلة؟ ما المغزى من كل ما يحدث؟ إن كان ابنك لا يعرفُ شكل الخطأ إنما يسمع عنه بتوجيهاتٍ منك، فكيف له أن يتعرّف إليه إن أوشك على الوقوع فيه؟ غالبًا ما نقع في الأخطاء إزاء التوجيهات التي تُلقى علينا منذ الصغر في قائمةٍ مطوّلة، إننا مجبرون على خوض تجارب من سبقونا وتجربة خياراتهم، ما المعنى من إنجاب طفلٍ يكرّر حياتك أنت؟

ورغم أنني كنتُ أحاول التجرّد تمامًا من شخصية والدي، إلا أنه ودون وعيٍ منّي كانت خصاله تزداد تأصلًا بي، الطريقة الأنانية ذاتها في الحصول على العائلة دون الاكتراث للعواقب، اتّخاذ القرارات وفرضها على الآخرين دون سؤالهم، ولا أذكر أنني لمرةٍ واحدة في حياتي تمكّنتُ من كتابة سيرةٍ

ذاتية عني، فكُل ما كان يخطر ببالي هو نمط عيش والدي وطريقة تفكيره، حتى سخطُه على الأشياء كان يشابه سخطي لحدٍّ كبير، إننا ورغم استمرارنا في الهرب ممّن عجنوا ذواتنا بأيديهم وشكّلوها نعتاد على الشكل النهائي، بل وفي أحيانٍ كثيرة نألفه.

(32)

أتمنى لو كان بإمكاني الشعور لمرةٍ أخيرة، لو أتمكن من الكتابة بشكلٍ لا يَبخس هذا الألم بداخلي حقه، أو الصراخ بشكلٍ لا تعترض طريقه الغصات، أريد أن أشعر بأنني على قيد الحياة دون أن يتمكن كل هذا الموت مني.

حول طاولة أحد المطاعم المشهورة في الرياض كنا نجلس أنا وأمي ويزن، كانت رائحة المشاوي تسيل اللعاب، وفي انتظار الطلب الذي تأخر لأكثر من نصف ساعة كانت والدتي تداعب يزن وتخطئ أحيانًا في نطق اسمه وتناديه ياسين، ينتابني شعور بالخيبة حين تفعل ذلك، فللحظات تمنيتُ لو أنها ملكية خاصة بي، ليست لياسين ولا لكنعان، ربما هذه الأنانية هي التي صيرتني، أنانية الطفل الذي يطمح لتكوين عائلة رغمًا عن كل شيء.

سألتني بينما يزن يمسك يدها ويحاول ابتلاعها:

- كيف حال جدك وأعمامك؟

كنت أمزق قطع المنديل التي على الطاولة حتى استحالت إلى قطع صغيرة وأنا أجيبها:

- إنهم على حالهم.

ثم أُكمِل متذمرة:

- أمي.. أعني لم يتغير شيء، جدي كما هو دائمًا، ما زال مُصرًّا على صحة ما فعله نحوك، أعمامي علاقتي بهم سطحية

جدًّا، في الآونة الأخيرة أصبحت موضي تزورني بين الفينة والأخرى لتستعيد ذكرياتها بابنتها.

سألت بصوت زحفت إليه مسحة من الذعر:

- ما الذي حدث لابنتها؟ هل هي بخير؟

حدقت إلى الجدار تفاديًا للنظر إليها وأجبت:

- لقد انتحرت منذ أكثر من عام.

فتحت عينيها الزرقاوين على اتساعهما ووضعت أصابع يدها على فمها، كانت أمي في حالة صدمة.

ساد صمتٌ بيننا للحظات، ثم سألتني وهي تعصر يدي بين يديها:

- هل أنتِ بخير؟

بصوت يرتعش انفعالًا أجبت:

- لا لستُ بخير على الإطلاق، فقد كانت نورة هي العائلة بالنسبة لي.

تحدّق نحوي وعليها مسحة من العطف والتكرُّم، وهي تقول:

- زهراء، أعلم أني كنت بعيدة عنك لكن الأمور كانت خارج إرادتنا، إذا اعتقدتِ أن حبي لسالم كان مجرد نزوة أو طيش مراهقين فأنتِ مخطئة، لقد حاربتُ لأجل والدك كل عائلتي، حتى إنني أعلنتُ الاضراب عن الطعام إلى حين موافقة والدي على زواجي به، لقد كنتُ طفلة مدللة يا زهراء، لا يُرفض لي

طلب.

ثم وكأنها تذكرت شيئًا في منتصف حديثها قالت:

- لا عليكِ من كل هذا، إن الحديث في هذا الأمر يُصعد الأمور على نحوٍ لا أريده، المهم هو أنتِ الآن.

رمقتها بنظرة خاطفة مشوَّشة إثر تدافع الدموع في عيني ثم قلت:

- إن ذكرى رحيل نورة لا تزال ماثلة في ذاكرتي كما لو أنها حدثت بالأمس، لم أتمكن من تجاوز الصدمة بعد، فآثارها قد تغلغلت في كل تفاصيل حياتي، وعلى الرغم من أن الجميع – باستثناء موضي - يُفضلون ألّا يأتوا على ذكر تفاصيل الحادثة باعتبارها حدثًا غير سار، إلّا أني ودون قصد، أقضي ليالِيَ طويلة أحارب فيها الأرق، إنها تقضّ مضجعي وتفاقم الشعور عندي بالندم واللوم، لا أستطيع أن أسامح نفسي على الأيام التي تجاهلت بها رسائل نورة ومكالماتها، ضميري ينهشني وسأكون مجرد كاذبة إن اختلقت قصة الحياة الطبيعية والسعيدة بعد هذا الحدث!

تنهدت ثم بدت وكأنها تستعيد ذكرى ضبابية، شردت لبضع لحظات قبل أن تقول:

- زهراء، عليكِ أن تعي جيدًا ألّا ذنب لك في انتحارها، إنها شخص راشد وقد اتخذت هذا القرار بنفسها وعليكِ احترام طريقتها بغض النظر عن كونها أنانية وغامضة. ربما الجرح الذي بداخلها لم يكن قابلًا للالتئام، أنا لا أبرر للمنتحرين

لكن تمر على المرء بعض الأوقات التي يتمنى بها لو لم يكن موجودًا، لأن وجوده صار حِملًا على الجميع وبالأخص نفسه.

أومأت إيماءة قصيرة ثم علقت:

- أتفق معك، لكن أليست تلك طريقة جبانة في التخلص من المشكلات؟ أعني أن الهرب ليس حلًّا.

رفعت نظرها نحوي وابتسمت ابتسامة دافئة دفء العناق:

- أنتِ محقة، لكن نورة رحلت الآن وعليكِ أن تتذكري جانبها الجيد فقط.

آخذ نفسًا عميقًا وأشمّ رائحة صحن المشويات الذي وضعه الجرسون أمامنا، تنهدت وأنا أردد:

- كدت أموت جوعًا.

بعد مرور أسبوع حافل مع أمي، شعرت كأني تعرفت عليها من جديد، كانت تبدو مختلفة هذه المرة، ليست مريم التي تعرفت عليها في تركيا ولا التي سمعتُ عنها من أحاديث والدي، إنها امرأة جديدة لا تشبه أحدًا إلا نفسها، عذرتها على كل اللحظات التي ابتعدت فيها عني، وكنت على استعداد تام لأن أغفر للجميع لو أتمت معي أسبوعًا آخر.

كان توديعها في المطار اللحظة الوحيدة التي عكرت صفو الأسبوع، احتضنتها بقوة وأنا أدعو الله لو تفوتها الطائرة، أو تتراجع عن قرارها أمام دموعي، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث.

زارني والدي بعد مغادرتها بيومين، كان تحت عينيه انتفاخٌ

داكن، كان منهكًا ومكدودًا، جلسَ أمامي مطرقًا رأسه للأسفل ثم قال:

- زهراء، أعلمُ أن لا ذنب لك فيما عشتِه وفيما ستستمرّين بالخوض فيه، لقد حاولتُ جاهدًا المحافظة على علاقتي بوالدتك، بعضُ محاولاتنا للاقتراب ما هي إلّا طُرقٌ لرسم مسافاتٍ أبعد، أنا آسف، سامحيني.

ثمّ ظلّ يردد ذلك كثيرًا، تملّكني إحساسٌ غريبٌ بالارتياح، لبثتُ في صمتٍ طويل وفي غَمرة ذلك خمّنتُ أن الأقدار لأول مرة قرّرت الوقوف في صفّي، وخطَر لي ما قاله فاروق جويدة وهو يقول:

«وغفرتُ للأيام كل خطيئةٍ

وغفرتُ للدنيا وسامحتُ البشر».

احتضنني بعُمقٍ وهو يربّت على ظهري، ارتعشت شفتاه بمتُون الحب والرحمة، ثم عاد لمنزله.

توجّهت لغُرفتي، كان الصمت يعمّ المنزل، يزن نائم، ماجد كعادته في الخارج، فتحتُ خزانة ملابسي، جلستُ على الأرض وانحنيتُ بظهري ملصقةً بطني إلى فخذي، نثرتُ الثياب قطعةً قطعة، فإذا بي أجد دفتر مذكّراتٍ أبيض اللون، فتحتُ الصفحة الأولى، وجدتُ نصوصًا طويلةً لي، بعضها مفهومٌ والبعض الآخر لا أذكر تحت أي تأثيرٍ كتبتُه، سرحتُ لوهلةٍ وأنا أفكّر، ما الذي يدفع الآخرين للكتابة؟

طوال حياتي كنتُ موقنة بأن الكتابة فعلٌ لا يقلّ خطره عن

إطلاق الزناد، وإن كنتَ لا تشعر خلالها بخوف الضحية، فأنت لا تكتب بالفعل، خلق الله لنا صوتًا نتميّز به منذ الولادة، وما أن تكبَر قليلًا حتى تفقد نبرتك الخاصّة، حتّى إنه ولفرط ما استخدموا حنجرتك في الكلام بدلًا عنك تعتادُ الصمت، إن السبب الرئيس في مزاولتنا للكتابة لا ينمّ دائمًا عن رغبتنا في توثيقها أو إصدار الكتب، إنما في البحث عن صوتنا الخاص بنا.

بدأتُ ألملم ملابسي عن الأرض، وأخذتُ دفتري لكلّ الأيام التي انتزعَت حنجرتي.

(33)

لقد دفنت كل صرخة في بلد حتى إذا لم يعد لدى نساء الأرض ما يدافعن به عن أنفسهن منحتهن صوتي.

أعددتُ كعكة البرتقال ذلك اليوم، كانت السماء مُلبدة بالغيوم حين شاهدتها من سطح العمارة، طرقتُ باب المُلحق وأنا أحمل معي صينية الكعك الكبيرة المُغطاة بالقصدير بيد وباليد الأخرى يزن.

كانت فاطمة ترتدي قميصًا قطنيًا أبيض بأكمام طويلة وتصميم كلاسيكي تعلو على الصدر علامة بولو حمراء اللون، تطوي كمي قميصها حتى كوعيها، كاشفة عن معصم أبيض نحيل.

ابتسمت وهي ترحب بي بيدها اليمنى وتدعوني للدخول، على الطاولة كانت علبة سجائر مارلبورو وثلاث سجائر في الطفاية، كانت رائحة التبغ تفوح في أرجاء المكان، اعتذرت وهي تفتح نوافذ البيت.

حملت الصينية من يدي وشكرتني على لُطفي، ثم قبلت يزن برقة. قالت وهي تمعن النظر إلى يزن:

- أعتقد أنها ستمطر اليوم، ثم ابتسمت.

اعتذرت لها عن قدومي دون موعد، لكنها قالت وفي صوتها بعض الجدية: - من الجيد أنكِ جئتِ لزيارتي، ليس لدي شيء أفعله خصوصًا في نهاية الأسبوع.

وضعت كيس شاي أخضر في كوب ورقي وضغطت على زر غلاية الماء الجانبي، ثم سألتني:

- كم ملعقة سكر؟

كنت أحاول قطع الكعكة باستخدام سكينٍ بلاستيكية وأنا أجيب:

- ملعقة واحدة صغيرة.

وقفت أمام الثلاجة الصغيرة البيضاء وهي تسأل بفضول:

- كم عمر يزن؟

أجبتها وقد انتهيت أخيرًا من تقسيم الكعكة إلى مثلثات:

- أعتقد أنه بعد شهر سيكمل عامًا ونصف العام.

ارتفع زر الغلاية إلى الأعلى مُعلنًا عن غليان الماء، سكبت الماء بحرص في كوب الشاي ثم حركت الملعقة البلاستيكية، انحنت للأسفل قليلًا لتفتح باب الثلاجة، أخرجت رزمة من الورقيات ووضعتها على منضدة المطبخ وهي تسأل:

- حبق أم نعناع؟

أجبتها:

- حبق

غسلت ثلاث أوراق من الحبق ووضعتها في كوب الشاي، وباستخدام الملعقة البلاستيكية الصغيرة غمستها.

يتصاعد البخار من الكوب الورقي، أخرجت من الدولاب

الذي يعلو مغسلة المطبخ أوانِيَ بلاستيكية ووزعت قطعتي كعك في كل صحن.

جلسنا على الأريكة في الصالة، هذه المرة جلست بجانبي ثم حملت يزن ووضعته في حجرها، سألتها:

- هل وجودك هنا مؤقت؟

هزت كتفيها وهي تقول:

- لستُ واثقة...

تبريرًا لسؤالي قلت:

- أعني لديكِ أثاث جديد ورائع لكنك تفضلين استخدام الأدوات الاستهلاكية في المطبخ.

أومأت رأسها إيماءة قصيرة ثم علقت:

- لأني فاشلة جدًّا في الطبخ، إضافة إلى ذلك فإني أتبع حمية قاسية، فالحقُّ يقال أنا لا أتناول إلا وجبة الفطور والمكونة من بيض وكوب حليب وأمضي اليوم كله في التدخين.

ثم شردت لوهلة وكأنها تذكرت شيئًا، وضعت يزن على الأريكة وحملت المطفأة إلى سلة القمامة لتُلقي كل أعقاب السجائر، اعتذرت مرة أخرى وعللت:

- لو أعلم أنك ستأتين برفقة يزن لنظفت البيت جيدًا خصوصًا من رائحة التبغ.

علقت:

- لا عليكِ يا عزيزتي، فاللوم يقع على عاتقي، لقد جئت دون موعد، أما بالنسبة ليزن فقد حاولت جاهدة حمايته من رائحة السجائر خصوصًا وأن والده يدخن بشراهة لكن دون فائدة، كما تعلمين يصعب حماية الأشخاص الأصحاء من الوقوع في المرض، هذه هي طبيعة البشر، أنانية.

بصوت هادئ ردت:

- أعتقد أنكِ محقة، ربما التدخين هو طريقتنا في الانتقام من العالم لا من أنفسنا كما ندعي.

أومأت بخجل ثم قلت:

- لم أقصد هذا، آسفة.

ردت بابتسامة:

- زهراء، ليس عليكِ تلميع الحقائق كما يفعل الجميع، أنا لا أعرفك وأنتِ بالكاد تعرفين عني أي شيء، لذا فما حاجتنا إلى مجاملة أشخاص لا نعرفهم؟

أجبت:

- ربما لأني اعتدت على فعل ذلك طوال الوقت، إنها مجرد عادة قديمة.

قالت بعد ما ابتلعت قضمة صغيرة من الكعك:

- إنه تأثير المجتمع علينا، نحن نحب تزيين الحقائق بل

ونلجأ أحيانًا لإخفائها، نظن بذلك أننا مراعون للمشاعر بينما ما نفعله هو كذب، خذي على سبيل المثال، في الأفلام التي نترجمها نضع كل الشتائم تحت ترجمة «تبًا»، لو لم يأخذنا فضولنا للبحث عن الشتائم في كل لغة لظننا أن الأمريكيين لا يعرفون إلا هذه الكلمة، إنه مثال غريب لكنه يمثل جزءًا كبيرًا من واقعنا، لقد تعلمنا تلميع الحقائق منذ الولادة مرورًا بالزفاف وحتى الموت، لا أحد يقتنع بالحقائق المجردة لأن ذلك سيجعلنا نموت من فرط القبح في العالم.

أرتشف بضع رشفات من كوب الشاي محاولة جمع شتات أفكاري ثم أقول بصوت خافت:

- أنتِ محقة.

أرجعت غرة شعرها خلف أذنها ثم قالت:

- يبدو كلامي سوداويًا لكنني سئمت من الكذب، عندما رأيتك أول مرة لمحت في عينيك شيئًا مألوفًا كأني أعرفك منذ زمن، هناك شيء بكِ يفصح لي بأننا نتشابه على نحو ما.

رفعت حاجبيّ دهشة وأنا أعلق:

- لقد شعرت بالأمر ذاته.

حنت رأسها فانسدلت الغرة على نصف وجهها، قالت بصوت هادر:

- لقد عشتُ خائفة طوال حياتي السابقة، ثم فتحت ثلاثة أزرار من قميصها وأخرجت كتف يدها اليمنى، كانت تعلوه ندبة

كبيرة.

سألتها بهلع:

- ما هذا؟

أجابت وهي تزرر قميصها:

- إنه الخوف الذي صنعني.

سألتها بنبرة يشوبها الخوف:

- مَن فعل هذا بك؟

أجابت وهي تبتسم بتكلف وتجيل نظرها في الغرفة:

- طليقي الذي ما زال إخوتي يلقون اللوم على كاهلي لأني طلبت الطلاق منه!

توترت بشدة ولأول مرة لم يكن لديّ ما أقوله، فمهما أغدقتها بكلمات المواساة لن يكون ذلك كافيًا، لهذا ودون أن أشعر شرعت لها ذراعيّ واحتضنتها، كانت تبكي كطفل صغير، تشهق مراتٍ متتالية كأنها تعيش الموقف من جديد بينما ظللتُ أنا صامتة أفكر في قبح العالم.

بعد عدة دقائق ذهبت إلى غرفة نومها وعادت بعلبة مناديل، قالت وهي تمسح عينيها وتضحك ضحكة قصيرة:

- أعتذر لأن الأمر سار بهذه الطريقة يا زهراء، لكنني كدت أنفجر.

هززت رأسي وقلت:

- لا عليكِ، جميعنا بحاجة إلى الانهيار بين الفينة والأخرى.

جلست على الأريكة المقابلة لي ثم قالت:

- أعتقد أنهم حاولوا وضعنا في قالب معين، أعني أن المرأة الطبيعية عليها أن تكون في قالبين لا ثالث لهما: إما أم وإما زوجة، وما يبعث على الغرابة أننا نحن النساء أيضًا رضينا بهذه القوالب حتى وإن لم تكن تناسب أحجام بعضنا أو طريقة تفكيره، طوال حياة الأنثى تتم معاملتها من قِبَل أفراد العائلة على أنها عروس ويتم تجهيزها لأجل هذا اليوم لهذا تصيبنا التعاسة حين نصل إلى الثلاثين ولم يأتِ فارس الأحلام على حصان أبيض، حتى حين نتزوج نحمل هذا الإرث الثقافي الذي كنا نرفضه إلى بناتنا حتى نصل إلى مرحلة لا نتمكن فيها من التفريق بين الموروث والطبيعي.

أومأت وأنا أجيب بخيبة:

- أنتِ على حق، لقد تزوجت والجميع يفرضون علي كيف أكون حتى نسيت ما أنا عليه، ربما ما نحنُ إلا مرايا تعكس نظرات المجتمع إلينا. كان مؤمَّلًا من الإناث أن يصبحن على هذه الصورة ليس بالضرورة لأنها صحيحة بل لأنها تناسب الرجال، القوالب صنعها الرجال وصيرنا أنفسنا عجينًا لأجلهم وتكفلت الحياة بحرقنا.

ابتسمت وهي تردد:

- أخبرتكِ أننا نشبه بعضنا بعضًا.

أخبرتها وأنا أخرج مصاصة من حقيبة يدي وأضعها في فم

يزن:

- عندما تطلق والداي عشتُ حياتي بناءً على ما يفرضه عليّ الآخرون، لم يكن لدي الشخص الذي يرشدني وازداد الأمر سوءًا حين تركتُ المدرسة تعسفًا، تحولتُ إلى ربة المنزل التي يتمناها الجميع، وفي مرحلة المراهقة ربما أنقذتني بعض الكتب من براثن الجهل لكن شيئًا ما بداخلي استسلم شيئًا فشيئًا كما يخبو نور ساطع في ظلمة نفق.

شرَدَت برهة وكأنها تستعيد ذكرى مؤلمة، ثم أردفت:

- أن يتطلق والداك أهون من أن توافيهما المنية، قُبيل تخرجي من الثانوية توفي والداي واضطررت للسكن في منزل أخي الأكبر «علي»، في البدء تحملت إهاناته وصبّرتُ نفسي بعبارة: «إنه أخوكِ الكبير وعليكِ احترامه وتقديره» ثم انهالت عليّ إهانات زوجته التي حرضته على الموافقة على زواجي من صديقه في العمل والذي كان يكبرني بعشرة أعوام، وهذا فعلًا ما حصل، تركت دراسة الجامعة على الرغم من كوني متفوقة في دراستي ولم يكن هناك مجال أدخله إلا وأبرع فيه، كانت طبيعتي تبحث عن الكمال في كل شيء أما بعد وفاة والديّ فتعلمتُ كيف أتقبلُ النقائص أولًا، حين يموت والداك تتغير الموازين فجأة، ببساطة لا يصبح لديك ما تعودين إليه، لا أعرف كيف أصف الأمر فهو مرعبٌ للغاية لكن يمكنني القول بأنه يشبه النوم في العراء.

سألتها وأنا أسند رأسي بإحدى يدي:

- أعتذر على الفضول لكن ما الذي حملك على اتخاذ قرار الهرب متأخرًا؟ أعني ما الذي يدفع المرء للصبر على جروح كهذه مع شخصٍ يمكنك ببساطة الانفصال عنه؟

فكّرت في الأمر لفترة ثم قالت وفمها التوى في تعاسة:

- أعتقد أن الأمر كان تلميعًا مني للحقائق، فبدلًا من البحث عن الضمادات استعنت بمساحيق التجميل لإخفاء وجه مجروح، كنتُ مثلك ومثل كل الفتيات أنتظر الحمل بفارغ الصبر ليس لأني كنت أرغب به فقد كنت أبعد ما يكون عن هذه الرغبة قُبيل وفاة والديّ لكن كما ذكرتِ سابقًا علينا أن نموت لننفذ وصايا الآخرين علينا، لم أتمكن من تقبل زوجي طوال السبع السنوات، كان وعائي الفيزيائي ينام بجانبه بينما روحي تجوب الأرجاء، لقد عانيتُ من سنواتٍ من الاغتصاب وإجبار النفس على التأقلم في المكان الخطأ، وعلى الرغم من أني دعوت الله كثيرًا بأن لا أنجب منه طفلًا كنت أجدني في أحيان كثيرة أستلطف أطفال الناس ويؤلمني سؤال الآخرين عن سبب تأخر حملي، لا أعرف كيف لشخص واحد أن يحمل رغبة وعكسها ويبقى ساكنًا، وحتى في لحظات انهياره الصغيرة يستنكر عليه الجميع ذلك، حين تيقن الأطباء أن نسبة الحمل في حالتي مستحيلة كانت تلك هي القشة التي قصمت ظهر البعير، الآن صار لديه سبب لتعذيبي، لكنه نسي أن هذا السبب هو الذي حولني لشخص مختلف تمامًا، كان يلقي عليّ أنواع الشتائم واللعائن لأسباب تافهة وكنت أُلقي بكل هذا في هاوية الروح، وأفعل مثل كل النساء حولي، أنتظر أن يحدث

شيء، حتى استيقظت مرة على سكينٍ في يده، كان يهددني به وأخيرًا استوعبت رسالة الله وطلبت الطلاق الذي حذرني منه إخوتي مرارًا على الرغم من معرفتهم المسبقة بعقمي وبكدمات جسدي وندوبه، لكن على مَن أُلقي اللوم يا زهراء؟ أنا التي رضِيَت بالإهانة ثم عزوتُ لاحقًا تلك المرحلة من حياتي إلى إصابتي بمتلازمة ستوكهولم، لم يكن هناك تفسير آخر لما اقترفته في حق نفسي. وها أنا الآن هنا، هربتُ من كل شيء وبدأت حياتي الجديدة بعيدةً عنهم.

أومأت بحزن وأنا أتمتم في نفسي أمنية أخيرة، وهي أن أكون بنصف شجاعتها وأواجه السوء في حياتي لأضع له حدًّا.

انهمر وابلٌ من المطر قارعًا سقف البيت، هرعت فاطمة لإغلاق النوافذ أما أنا فهرعت إلى الخارج، صرختُ بفرح وأنا أُغمض عيني وأخرج لساني لتذوق قطرات المطر، للحظات بدا العالم بلا صوت وبلا معنى ووسط طرطقة المطر الغزير أنصتُّ لأول مرة إلى صوتي.

(34)

لم أسعَ يومًا في خلق الأسباب التي جعلتني أحبّك، وأنا أقول «خلق» الأسباب وليس «البحث» عنها، لأن الحُب يمحو الأسباب والمنطق.

بعد مضيّ شهرين من قدوم فاطمة للسكن بالملحق توطّدت علاقتي معها بشكلٍ كبير، لذا فكّرتُ أن أدعو موضي لمنزلي إذ إنها أعرَبت عن شعورها بالملل والوحدة لمرّاتٍ كثيرة، إضافةً إلى أن فاطمة لن تجد صعوبةً في التّعرف إليها فقد وصفتُ لها حادثة نورة وعلاقتي بموضي وصفًا دقيقًا.

وافَقت موضي على الدعوة دون تردّد، كذلك فاطمة ورغم انشغالها كانت تفيض حماسةً لمقابلة موضي وأخبرتني أنها ستشتري الحلوى، بينما تكفّلتُ أنا بتحضير القهوة.

رتّبتُ المنزل، أخذتُ أطوفُ الأرجاء وأنا أوزّع رائحة البخور في الأركان، ثمّ وضعت المبخرة في منتصف الصالة حتى يعبَق المكان بالرائحة، كانت تنطلق ألسنة دخانٍ عطري زكيّ الرائحة، بدأ الليل يُرخي سدوله على المكان، لذا أشعلتُ الأضواء الخافتة، وذهبتُ لأُلبس يزَن ثيابًا جديدة، كان يهربُ منّي ويتعثّر، ثم يقف من جديد ليكمل الهرب، إنه في طور تحوّله لصبيٍّ شقيّ، أخذتُه لأحضاني ورحتُ أعبثُ بشعره وأدغدغه، ألبستُه قميصًا أصفر اللون مزينًا بطبعاتٍ على شكل أناناس، بياقةٍ عريضة مزوّدة بأزرار للإغلاق وأكمام طويلة، مع بنطالٍ أزرق قصير.

وما هي إلا دقائق معدودة وجرسُ الباب يرنّ، خمّنتُ أنها فاطمة لأننا نقطنُ العمارة ذاتها، فتحتُ الباب فدَلفَت موضي إلى الداخل، خلعَتْ عباءتها وعلّقتها على المشجب، كانت ترتدي جلّابية بنيّة اللون، مطرّزةً بنقوشٍ سوداء عند النحر والرسغ، يعلو صدرها المتهدّل طقمٌ صغير من الذهب.

جلَست على الأريكة، بينما راح يزن يتقدّم نحوها بخطواته الصغيرة ويشدّ طرف ثيابها بيديه، حملتْهُ في أحضانها، حدّق فيها بنظراتٍ شاردة، فقبّلته وطُبع أحمر شفاهها ثم مسحَت على وجنتيه برفق وهو يتبسّم لها.

جرسُ الباب يرنّ من جديد، فتحتُه فإذا بي أجد فاطمة، احتضنتها ودعوتها للدخول، اعتذرَت عن تأخرها وبرّرت ذلك بازدحام الطرق في نهاية الأسبوع بينما كانت في طريقها لجلب الحلوى، ثمّ حملتُ عنها كيس الحلوى، كانت ترتدي بنطالًا يجسّم أردافها وحذاءً أسود يصل لركبتها، وقميصًا بنيًّا مائلًا للحُمرة بأكمام طويلة.

ألقَت التحية على موضي، قبّلتها على خدها الأيمن مرةً وعلى الأيسر مرّتين، بينما كانت موضي ترمقها بتفحّصٍ من رأسها لأخمص قدميها، أما أنا فذهبتُ لأحضر الطاولات الجانبيّة الصغيرة، وضعتُ أكواب القهوة والماء عليها ثمّ ذهبتُ لأضع الحلوى في طبقِ الخزف، وقدّمته لهما، ثم قلتُ معرّفة:

- أم راكان هذه فاطمة، جارتي في العمارة قدمت من الخبر إلى هنا منذ ما يقارب شهرين، فاطمة هذه أم راكان «موضي»

زوجة عمّي ووالدة نورة.

أومأت فاطمة مرحّبة بينما كانت موضي تبتسم لها على مضض، كان يزن يغمسُ أصابعه الصغيرة في الأطباق، وبينما كنتُ على وشك نهره، وضعتهُ فاطمة إلى جانبها وقدّمت له قطعةً من الحلوى، وفي تلك الأثناء سألتها موضي وهي ترتشف القهوة:

- هل أتيتِ بمفردك إلى هنا؟

أجابت فاطمة بابتسامةٍ عذبة وهي تنظر إليها:

- نعم، أنا بمفردي في الملحق، لكنّني أطلّ على زهراء بين فينةٍ وأخرى وهي تفعل الشيء ذاته معي.

رفعَت حاجبًا واحدًا بإدراكٍ مصطنع وهي تنظر ليدها ثمّ قالت:

- لا بدّ أنك مطلقّة، فأنا لا أرى محبسًا أو ما شابه.

قالت بتنهّد:

- نعم أنا كذلك، انفصلتُ من زوجي العام الفائت بعد زواجٍ دام لسبع سنوات.

انعقد حاجباها وضاقت عيناها ثم تساءَلت بخبث:

- أين أبناؤك إذًا؟

أجابَت بنبرةٍ مكسورة وهي ترتشف قهوتها:

- لم أُنجب.

أكمَلت موضي التساؤلات قائلة:

- في الحقيقة هذا ما ظننتُه من قوامك الممشوق، لكن ألا تعتقدين أن مكوثك هنا بمفردك دون وجود رجلٍ يتكفّل بحمايتك أمرٌ قد يلحق الأذى بك؟

أجابت بنبرةٍ واثقة:

- لا أعتقد ذلك، في الحقيقة لقد تكبّدتُ عناء الوصول إلى هنا لإكمال دراستي الجامعية.

قالت بنبرةٍ يشوبها خبث:

- إن كنتِ قد التحقتِ بالجامعة هنا فلمَ لم تقطني في السكن الخاصّ بهم؟

أجابت بغضبٍ مكتوم:

- لأن إخوَتي قاموا بتهديدي، وعلى رأسهم أخي الأكبر «عليّ»، انتابني إحساسٌ بالرعب والارتباك لم أتمكّن من تجاهله، وخفتُ من أن يبحثوا عنّي، لذا انتقلتُ للعيش هنا.

عقَدت ذراعيها أمام صدرها بسخرية ثم قالت بتهكّم:

- أعتقد أن الخوف يولّد فينا الحذر، لا أفهم سبب عنادك وكل هذه المجازفة من أجل الشهادة، رغم معرفتك التامّة بتناقص فرص العمل، لو أنك حافظتِ على زواجك لكان خيرًا لك.

تدخّلتُ بنبرةٍ غاضبة وأنا أقول:

- إن الخوف هو الدافع الرئيس للتمسّك بما نخطط له يا أم

راكان، أعتقد أنه يحفّزنا لخوض مزيدٍ من التجارب، لا أحد يخاف من الاندفاع، إنما من الانطفاء، والتنازلات التي نقدّمها في سبيل الحفاظ على صورة العائلة المزيّفة ما هي إلا إهدارٌ للعُمر.

قالت وعلى وجهها تعابيرُ تنمّ عن حقدٍ دفين:

- ماذا عنك يا زهراء؟ هل تمارسين أدوارًا مزيّفة للحفاظ على صورة العائلة؟ في الحقيقة لن أُصدم إن أخبرتني أن هناك شرخًا في علاقتك بماجد، المسكين لا يبدو سعيدًا، أصبح جديًا، لا شكّ أن المشكلات هنا زادته وقارًا.

قلتُ وعيناي تلمعان بالدموع:

- إنني أُفضّل توسّع الشروخ في العلاقات وإنهاءَها على حشوها والحفاظ عليها بتقديم مزيدٍ من التنازلات، الجميع يعرفون علاقتك المشوّهة بزوجك وبطشه وجبروته عليك وعلى ابنتك، حتّى إنك لم توقفي ذلك ولم تسعَي لإيقافه.

مدّت يدها نحوَ كأس الماء وهي ترتعش انفعالًا، وكمَن يحاول الحفاظ على ماء وجهه قالت بسخرية:

- إنك تبالغين يا صغيرة، ما خَفي عليك هو الحُبّ الذي يكنّه سعيد لي، غير أنه وفي بعض لحظات الغضب يتصرّف بطريقةٍ قاسية.

لم أُجب، بعضُ النقاشات مبتورةٌ في الأصل، إن استمرَرْنا في خوضها فسنفقد أجزاءً منّا لا محالة، فضّلتُ أن تحظى موضي بدور المنتصرة في نقاشٍ كهذا في حياةٍ تستمرّ بهزيمتها

وتوجيه اللكمات لها دون صدّ، بالطبع لم أشأ أن أخبرها أن الغضب لا يبرّر أي عنفٍ أو تصرفٍ وحشيّ، لكنّها كانت ستعلّل ذلك بالحُب، الشمّاعة الوحيدة التي يعلّق عليها المجرمون جرائمهم.

قُبيل منتصف الليل غادر الجميع، أما يزَن فقد غطّ في نومٍ عميقٍ على الأريكة وبقايا الحلوى تلطّخ فمه، مسحتُ أطراف فمه بمنديلٍ مبلّل، ثم توجّهتُ للغرفة، حملتُ دفتر مذكّراتي وقلمًا أزرق جافًا، أطفأتُ الأنوار ووضعتُه في سريره، ثمّ أغلقتُ الباب بهدوء وخرجت.

جلستُ على الأريكة، أخذتُ القلم وشرعتُ في الكتابة وأنا أتساءل: أي شعورٍ يدفعنا إليه الحُب؟ إن اعتقادي بأن الحُب هو نقيض الوجع لا يزال بذهني، لا يمكِنُ للحُب أن يؤذيك، وما يجعلُك تتخلّى عن أحلامك وقراراتك فهو بلا شك حبٌّ ملغّم بالأنانية سينفجر عليك في أي لحظة، لا يمكن للحُب أن يمنحك هذا الخوف من خطو طريقك نحو الحُلم، إن كل أولئك الذين تعذّبوا منه مع مرور الوقت يكتشفون أنه لم يكُن حبًّا بالفعل، نخوض الحُب في أحيانٍ لأنه يناقض شعورنا بالكراهية، وفي الغالب لأننا سمعْنَا عنه، قرأناه في الروايات أو قُرئَ علينا، غمرتنا الدّهشة وبرقت أعيُننا حين ألقوه على مسامعنا وهم يصفُون علاء الدين وحبيبته والمصباح السحريّ، شاهدناه على التلفاز ورؤوس الجنود تتدلّى من النوافذ لمنح قُبلةٍ قد تكون الأخيرة لحبيباتهم، واستمعنا لكل الذين شدَوا طربًا به، أُصبنا بعدوى الأغاني، والرسائل الهاتفيّة التي

نختِمها بقلبٍ أحمر ينبض كتعبيرٍ عنه.

إليك الحقيقة إذًا، لا وجود لمصابيح سحريّةٍ في الحُب، إنه المُعجزة التي لا يتطلّب شعورك بها فركًا للمصابيح، لكنّه يشابه لحدٍّ كبير شعور التحليق على سجّادة، بالطّبع لا يمكُن وصفه ببساطة أيقونة القلب النابض على الهاتف، ولا يمكن أن يكون بصعوبةِ الوداع أو القُبلات الأخيرة، ولعلّ ما يدفعنا للوصول إلى الأهداف والإصرار على تحقيقها لا يقتصر على الحُب والطاقات التي يمنحنا إياها وحسب، بل غالبًا ما تنشأ لدينا هذه القوى من نقيض الحُب، أعني بذلك الكراهية، إن وصف شيءٍ ونقيضه ثمّ إدراك أنهما يصبّان في النهر ذاته أمرٌ في غاية التعقيد، فقد يدفعنا الحُب نحو هاوية الفشل، وقد تدفعنا مشاعر الكره للشيء ذاته، مع مرور الوقت ستتعلّم أن الأشياء لا يمكن أن تتغيّر وتفقد طبيعتها من أجلك، إنما منظورك للأشياء هو الذي يتغيّر، عينُك هي العين ذاتها، أنت لم تفقد نظرَك، لكن أصبحَت لديك قدرةٌ على الإبصار.

(35)

أن تسأل كطفل وتجيب نفسك كبالغ، أن تحب كمراهق وتكبح جماح قلبك كراشد، أن لا يعود لموتك أي معنى لكن موت الآخرين قد يقتلك، أن تشفق على والديك بعد سنوات طويلة من الصراع، هل تعرف الآن معنى أن تصبح ناضجًا؟

لطالما آمنتُ أن الكتابة كالجسد لها حدود على المستوى المُتعارف، لا أحد يمكنه الجزم بأنه وصف حزنه من خلال مرثية ولا حبه بالشكل الكافي، الكتابة تحدُّك من إطلاق العنان لشعورك كما هو، شعورك الطبيعي الخام، الذي يتخبط بك كالمجنون، تشكله الكتابة بطريقة مثيرة للقارئ لكنها تكسر نفس الكاتب للحد الذي يُقدم به معظمهم على الانتحار.

لا أعلم إن كان هناك من يتشارك معي هذه الفكرة لكني أظن أن الأرواح مواد عالية اللزوجة، تأخذ وقتًا لتحظى بشكل الإناء الذي يحتويها، وما أن تخرج الروح من جسدك حتى تمضي في الحياة بهيئتها الخام، حرة تمامًا ولزجة وكثيرة التخبط.

لا أعلمُ كيف تبدو روحك يا صغيري، لكنها تلتصق بي، وتستنزفني تمامًا كما يفعل العَلَقُ بالأجساد.

أذكر كيف كانت السماء مُلبدة بالغيوم، وكأن عاصفة في طريقها إلى هنا، لا أدري كم مرّ من الوقت حينها لكنه كان قصيرًا للحد الذي لم أتمكن به من توديعك، كنت وحيدة وكل شيء حولي فقد مغزاه، لم يكن لسيارة الإسعاف صوت، ولا

لوجوه الناس ملامح، أما جسدك الواهن بين ذراعيّ فغادرت منه الروح.

في اللحظة هذه تحديدًا كنت في بُعد بلا حدود أتخبط فيه بين الزمان والمكان بلا نهاية كمن يركض على حافة العالم.

الدم يتدفق من جسدي، لم أكن أعلم من أي عضو، فكما في الولادة حين يقومون بعمل شقٍّ لإخراج رأس طفلك لا تشعر بالألم الذي تتوقعه في حالتك العادية لأنك ببساطة تتحمل ألمًا أكبر، هكذا هذه المرة لم أشعر إلا بألم واحد لا مناص منه وهو ألم فقدانك للأبد.

أذكر شكلك بالأبيض، مرة بثوب العيد والأخرى بالكفن، وتمنيتُ حينها لو كان بإمكاني أن أحملك معي وأضعك في السرير، أن ألعب معك لعبة الأم والطفل من جديد وأتناسى لحظة شجاري مع والدك، وأنتبه للعمود أمامنا في وقتٍ أبكر.

أذكر كيف كان يسحبني ماجد بقوة بينما كنت أحاول جاهدة أن أهرب بك، أن أعيش معك يومًا أخيرًا، لن أتململ من بكائك المستمر، ولن أتأفف على الإطلاق من تغيير حفائضك، ولن أتركك في العربة بينما ترفع لي يدك لأحملك.

تحت ضوء الشارع لمحتُ وجهك، كان ظلي أطول من ظل عمود الإنارة، يمتدُّ إلى الرصيف المُقابل، كأنه يحاول أن يجعل سيارة تتعثر به فتصدمني أنا أيضًا وأنتهي أخيرًا.

بيديّ المرتعشتين هززتُ جسدك، بصوتي المبحوح ناديتك: يزن.. يزن، سنعود إلى المنزل بعد قليل، وبما تبقى في صدري

من حنان خبأتك.

حملوا جسدَك بعيدًا عنّي بينما كانت الدماء تقطُر من رأسك على الرصيف، أخذتك المُمرضّة وأنا أنبّش أظافري في ساعديها وأردد: «اتركيه»، انتزعوك منّي، دخلتُ لسيارة الإسعاف وأنا أصلّي لفرصةٍ أخيرةٍ لك في البقاء، إنّه ميت، هكذا أخبروني، لم تُعنّي قدماي على حمل جسدي فخررتُ ساقطة، وشعرتُ أن خلاياي ذائبة، ورأسي ثقيل وأطرافي غائبة، واستيقظتُ وأنا على سرير المستشفى، وماجد يطلبُ مني أن أودّعك لمرةٍ أخيرة، تقدّمتُ نحوك وأنا أرى جسدك المُمدّد الملقى في البياض، بكيتُ بنواحٍ شديد حتّى تورّمت عيناي واحمرّ أنفي وعلا صوتي بالنهنهات وضاعت ملامحي من الدّموع وسوائل أنفي ولُعابي، ورجَوتُ أن تعود لمرةٍ أخيرة وأقسمتُ أن أقبلك بأيّ سوادٍ كُنت ستأتي لي به، لمَ امتلأْتَ بكل هذا البياض؟

وبعد ما حَقنوني بالإبر المهدّئة، استيقظتُ وأنا في سريري، ثم رحتُ لألقي نظرةً على مهدك فإذا بي أجده فارغًا، بحثتُ عنك في أرجاء المنزل وخمّنتُ أنك تلعب معي الغمّيضة وناديتُ باسمك كثيرًا، ثمّ جاريتُك في الاختباء، وجلستُ متكوّرةً في خزانتي وأنا أنتظر ظلّك يمتدّ على الحائط وتقترب نحوي بخطواتك الصغيرة، أخبرتُك أن دورَك قد حان، وأمرتُ الدّمى خاصّتك أن تلتزم الصمت لأنك قادمٌ للبحث عني، وحين غرَبت الشّمس أشعلتُ مصباحًا واحدًا لأتمكن من رؤية ظلّك الذي ابتلعتْهُ العتمة، وكنتُ أرقُب الحائط ولم يرمش لي جفن،

ثمّ سمعتُ صوت حشودٍ أمام العمارة، فتحتُ نافذتي فإذا بي أجدهم ينصبون خيمةً ويضعون الكراسي على الأطراف، وصوت جرس الباب راح يصدح في الأرجاء فذهبتُ لأفتحه، لقد كان ماجد، أخبرني بضرورة ارتدائي عباءةً سوداء لاستقبال المعزّيَات، حينها داهمتني الحقيقة، كمَن بُتر جُزءٌ منه لكنه لم يلحَظ ذلك إلا عن طريق المرآة، لقد رأيتُ انعكاس حُزني في عيون ماجد وملامحه، لم أغلق الباب خلفه، تركتُه مواربًا، لبستُ عباءتي وغطّيتُ رأسي، دخَلت موضي وهي تحتضنني بقوّة وتبِعتها صالحة، ثمّ فاطمة، وبعد مضيّ دقائق دخَلت أمي، أخذَت تقترب صَوبي وهي تقرأ آياتٍ من القرآن، مسحَت على وجهي وخبّأتهُ في صدرها، أرهَقني البكاء والنحيب، وعلى الرّغم من أن البكاء الشديد يُفقدنا القدرة على تمييز الروائح، غير أن رائحة يزن كانت تجوب في الأرجاء، كنتُ أجيل بنظري في الزوايا، ثمّ رأيتُ يزن يقف على عتبة الباب الخارجي وهو يلوّح لي، فانسحب إنهاك البكاء من جسدي شيئًا فشيئًا وحلّ مكانه نشاطٌ عجيب، ضحكتُ بصوتٍ مرتفع، مشيتُ نحو الباب وأنا أتجاوز الحضور، واقتربتُ محاولةً لمسَه ورأيته يتنفّس رامشًا بعينيه، فحمَلتني فاطمة وأنا أتوسّل لها أن تحضّر قنينة حليبٍ له، فقد كان يبدو جائعًا.

مددتُ جسدي على الأريكة، يسألني الطبيب:

- كيف حالك اليوم؟

دون أن أنظر إليه أجيب:

- ككل يوم.

تمور الريح مُرسلة زخات المطر على زجاج النافذة خلف مكتب الدكتور»سعد«، البرق يلمع ودوِيٌّ الرعد مُخيف، لدرجة خشينا فيها أن يتكسر زجاج النافذة.

أترك نظري يشرد في الشهادات المُعلقة على الحائط أمامي، وأتحدث دون توقف كمذيعة أخبار تقرأ من الشاشة الصغيرة ولا تشيح بنظرها عن الكاميرا:

- أنا خائفة، لا أشعر أن حياتي على ما يُرام، كيف مضى شهران على وفاة يزن؟

أغمض عينيّ لثوانٍ لأستعيد وجهه، أدعه يتسرب داخلي ثم أكمل:

- بالأمس تشظيتُ إلى أشلاء، كان الأمر شديد الغرابة، لقد رأيتُ نفسي في كل مكان، إلّا إلى جانبه، لا يمكن للمرء أن يتشظى على النحو الذي يريده على أية حال، لكنها كانت محاولة لا بأس بها.

تصطدم ملعقة السكر الصغيرة بالجزء الداخلي لكوب الشاي الزجاجي فتصدر صوتًا أميل بسببه برأسي إلى وجه الدكتور. عقد حاجبيه في اهتمام ثم قال:

- أكملي..

شردت مرة أخرى في الحائط أمامي ثم قلت:

- أشعر أني أنفصل عن الواقع تدريجيًا، هناك جزء في عقلي يسحبني إلى مكان لا أريده، بارد وشديد الظلمة، هل تعرف يا

دكتور شعور المرء حين يتم تخديره؟

أجاب بهمهمة:

- أعرف.

أكملتُ:

- حسنًا، في المرحلة التي أكون فيها مخدرة، أنفصل تمامًا عن الواقع، لا شيء يبدو منطقيًّا على الإطلاق، لا الوقت ولا المكان ولا الموت ولا الحياة، أعني كلها تبدو بالنسبة لي شيئًا يستعصي عليّ فهمه، حين أستيقظ كأن أحدهم يشبك في رأسي سلكًا قد فُصِل، أصرخ بشدة وأرجّح أن ذلك لالتماس في عقلي.

سألني باهتمام:

- ماذا يحدث في هذه المرحلة من الانفصال؟ أعني ما الأفكار التي تراودك؟ هل هي أفكار مؤذية؟

تنفجر صاعقة، ويرتسم ظل مكتب الدكتور على الجدار المقابل للنافذة.

أجيب:

- لا أعلم ما الذي يدور في عقلي خلال تلك المرحلة، لكنه شعور مريح، إني أسبح في عالم مختلف، بلا قوانين أو أنظمة، عالمٍ تحكمه رغباتي المدفونة، حتى إن هناك لحظات أستعيد فيها ابني وأعيش معه يومًا كاملًا خلال ساعة واحدة فقط!

يرتشف الشاي ثمّ يسأل:

- هل لعبَ زوجك دورًا هامًا في تخفيف هذه الأزمة؟

أجيبه في روتينية مملة وأنا أشيح بوجهي بعيدًا:

- في الواقع، بدا عليه تأثّرٌ مهول في أوّل الأسابيع، شيئًا فشيئًا أصبح يتغيّب عن المنزل لأيامٍ طويلة يقضيها في السهر مع رفاقه، في الوهلة الأولى ظننتُ أن هذه هي طريقته في تفريغ حزنه، غير أنه وحين عودته للمنزل لم يكُن يكلّف نفسه عناء السؤال عنّي أو عن احتياجاتي، أنا مُلقاةٌ إلى جانبه في السرير، نحاول التعاطي مع هذا الأمر، لأننا مضطرّان لصنع هذا البرواز الاجتماعيّ وزخرفته، وإن كان تعليقه سيَثقب الحائط.

سأل وعلى ملامحه اهتمامٌ لافت:

- وهل مارس طقوس غضبه أو حزنه بطريقةٍ تؤذيك؟

أجبت:

- إنه دائم الشّرود، تكسوه اللامبالاة، ولم يحدُث وأن صبّ جام غضبه عليّ، كما أنه يتكتّم على شعوره بالحزن ولم يحدث وأن شاركني إياه.

قال متأسفًا:

- إن وقت زيارتك قد انتهى يا زهراء، أراكِ في الموعد القادم.

خرجتُ من السيارة إلى عتبة المنزل، كان المطر ينهمر بشدّةٍ فوق الشجر محدثًا صوتًا عاليًا، دستُ على بقعةٍ صغيرةٍ من

الماء فأصبح حذائي ملطّخًا بالطين.

دخلتُ إلى المنزل، كان متسخًا للغاية وقد ظهَرت بُقع الشاي على السجّاد وقشور الفصفص على الأرضية، كانت تنبعث منه رائحةٌ نتنة، والمصابيح كانت مكسوّةً بالغبار، بينما كادت الأطباق في مغسلة المطبخ تسقط من فرط تكوّمها.

ذهبتُ لغرفتي نظرتُ لوجهي خلسةً في المرآة، ثم وقفتُ وأنا أتحسّس عينيَّ المنتفختين، كان وجهي شاحبًا كمن خرجَ للتو من منجم فحم، وحوافّ أجفاني بدَت داكنة، أما شفتَاي فكانتا جافّتين ومتشقّقتين، وجسدي لَم يكُن متناسقًا على الإطلاق، رفعتُ قميصي ومرّرتُ أناملي على بطني وأنا أرى كل الترّهلات، تأملتُ أظافري التي كانت تصفرّ وتقسو، ثم تسقطُ من فورها كأوراقٍ متيبّسة.

حملتُ هاتفي وبعثتُ برسالةٍ نصيّة لفاطمة، أخبرتها فيها بحاجتي للقائها ولم تمضِ أكثر من ثانيتين فردَّتْ موافقة.

لبستُ عباءتي وتوجّهتُ للملحق، نقرتُ على الجرس فاستقبلتني فاطمة بأحضانها، سألتني عن رغبتي في خلع عباءتي فهززتُ رأسي رافضة، في صينية وضعت البسكويت وأكواب الشاي، ثم أردفَت قائلة:

- كيفَ سارَت زيارتك للدكتور سعد؟

أمسكتُ كوب الشاي والبخار يتصاعد منه ونفختُ فيه بضع مرّات، ثم أجبت:

- كان يطرحُ عليّ الأسئلة ولم أتردّد في الإجابة.

ارتشفَت رشفتين من الشاي ثم سألت:

- وماذا بعد ذلك يا زهراء؟

قلتُ متسائلة:

- ماذا تقصدين؟

أجابت وهي تغمس قطعة بسكويت في الشاي:

- ألَا تخططين لإكمال دراستك؟ اسمعي، أعلم أنه أمرٌ صعب في ظل الظروف الحالية لكنّ...

قاطعتُها معلّقة:

- لن أكمل دراستي يا فاطمة، أغلقي الموضوع رجاءً

قالت بإصرار:

- بعضُ الأشياء تستحق التشبّث، كلّنا نعلم كيف تستمرّ الأحداث السيئة بالوقوع، دون موعد، وبشكلٍ مُفاجئ، هذه المرّة افعلي شيئًا جيدًا من أجلك، لا يمتّ للآخرين بصلة، إنك تسبحين في فراغٍ هائل، سيسحبُك نحو الذكريات ويزيدها ترسّخًا بداخلك.

قلت:

- هل أبدو كمَن يطمح لنسيان يزن يا فاطمة؟

أجابت بصوتٍ مرتعش:

- لا أقصد ذلك بالطبع، لا أحد ينسى أبناءه، وإن كنتُ لا

أعرف هذا الشعور تمامًا غير أنني أومن بوجوده، أنا لا أدفعك لنسيان يزن، إنّ إكمالنا للحياة بعد الخسارات لا يعني دومًا النسيان أو سرعة التخطّي، ربّما يكونُ شكلًا من أشكال الألم نستمرّ في تفريغه بممارسة ما نحُب، يزن سيبقى في قلبك، نورة كذلك، وكُل الذين رحلوا لن يتمنّوا لك أكثر من البقاء حيّة روحًا وجسدًا.

(36)

إن التعود يشابه لحدٍّ كبير شخصين على سفينة لوقتٍ طويل، تُثقب، فيقرر أحدهما التفرّد بالنجاة.. تاركًا الغرق في صدر الآخر.

لا نعرف حجم الكارثة إلّا حين تمُر، أما حين نكون في خضمها، فنُصبح مشغولين بها لدرجة ننسى فيها أنفسنا. لهذا رجعتُ بعد الحادثة إنما تركت نفسي في مكان آخر، لا أسعى للبحث عني على الإطلاق، أن تتخلص من نفسك كأن تُلقي بقطع الملابس المبللة الثقيلة على حبل غسيل، ثم تعود في اليوم التالي دون أن تجدها، فترتاح من حِمل كيها، وتمضي حياتك عاريًا، أنت باردٌ طوال الوقت، والعرَقُ الذي يتصبب منك، والرائحة النتنة التي تفوح من جسدك، ليست إلا رائحة نَفسٍ أخرى مُبللة سرقتها من حبل غسيل أحدهم، لا تشبهك في شيء، بل إنك في أحيانٍ كثيرة تزدريها، لكنك اضطررت ذات ليلة أن تكُف عن المُضي عاريًا بهذا الشكل الفاضح، حيث يعبُر الجميع من ثَقب كبير في صدرك.

كانت تفوح مني رائحة نتنة، لا يمكنني تشبيهها إلا برائحة جُثة متعفنة، لقد مات أحدهم، وأنا قبرٌ مفتوح، لا يمكن ردمي.

وزعت رائحة عطر Floris 1976 eau de parfum على جسدي المُتعفن، كمَن يحاول تزيين القبر بالخزامى، إنها فكرة مثيرة للشفقة، عدم قدرتنا على تحمل الحقيقة يجعلنا نفعل أمورًا سخيفة، فكرة الحياة بحد ذاتها مدعاةٌ للضحك،

إنها قائمة على تغطية الكوارث بأمور أكثر سعادة، عُمرك المهدور بحفلة عيد ميلاد، تجاعيد وجهك بدروس، أقدامك المتشققة بجوارب، عينيك الشاردتين بنظارات جميلة الإطار، مرضك بباقة ورد، حتى يموت أحدهم، حينها تعرف ألّا شيء سيغطي حجم الكارثة، لا التابوت الباهظ الثمن، ولا الأزهار التي ستضعها على قبر الميت، لا شيء سيعيده إليك، مهما بكيت بغزارة، أو حاولت قتل نفسك من فرط الوحدة، مهما تشتت، أو جمعت ما تبقى منك، سيظل ميتًا، وستفتقد رائحته، وضحكته، وابتسامته، ستشتاق لكل تفاصيله دون حيلة بيدك.

أمرر المقص في شعري، أذكر المرة الأولى التي قصصت بها شعري، وأذكر كيف تفاجأت نورة من شكلي، كنتُ مصابة باكتئاب بعد الولادة الذي لم يستمر طويلًا، لكنني الآن مُصابة باكتئاب الفقد، ذلك الذي لن ينتهي حتى يُنهيني، أتأملُ شعري الأحمر وهو يتساقط في المغسلة، قصصته بطريقة سيئة ومريعة، لأول مرة يبدو ما أشعر به واضحًا على شكلي إلى هذا الحد، كنتُ كالمجانين الهاربين من أحد المستشفيات، الغُرة الأمامية قصيرة للحد الذي تكشف به عن جزء كبير من جبيني الصغير، أما باقي شعري ففوضى خلاقة، أستغرق في النظر للمرآة ولا أعلمُ لماذا يعبر كلام والدي في ذهني، حين صارحني بأنه يقرأ صفحة الوفيات كل يوم ليتثبت من أنه ما زال على قيد الحياة، إنها مرحلة صعبة يصل لها المرء، حيث لا يعود أي شيء في العالم محسوسًا بالنسبة له، أو دليلًا على كونه موجودًا، لا الصفعة، ولا القرصة، ولا حتى الألم الذي يعتريك، تفتر شفتاي عن ابتسامة واهنة، لقد بدوتُ ميتة أكثر

من يزن!

أما ماجد فحتمًا لَم يصرّح برغبته في التخلّي عني، إنما فعَل كُل ما يشير لذلك، لا يمكنني حصرُ خياناته بالطبع، لا يبدو الأمر على هذا النحو الذي تعتقده، فأنا لَم أبحث خلفه، ولَم تعترِني الشكوك تجاهه، غالبًا لا يعتريك شكٌّ تجاه ما لَمْ تتيقّن منه منذ البداية، ولا يمكن أن تكفر بما لم تؤمن به من الأساس، لستُ من النساء اللواتي يقضين أيامًا في تحليل روائح العطر التي تلتصق بأشمغة أزواجهنّ، ولستُ من الذين يبحثون عن أثرٍ لأحمر شفاهٍ على ياقة قميصه، ربّما هذا ما دفعه للتصريح بخياناته أمامي.

إن أول ما تمنحنا إياه الخيانة هو شعورنا بالتهميش وعدم اكتفاء الطرف الآخر والاستمرار في جلد الذات، في الحقيقة لا مبرّرات للخيانة، إنها تشبه اتّخاذ قرار سلك طريقٍ مع أحدهم ثمّ الانحدار في منتصفه طمعًا في إكماله مع طرفٍ آخر، لا يمكنني أن أصف الأمر بشكلٍ دراميّ، لأنني لم أشعر بشيءٍ حيال خياناته المتعدّدة تلك التي كان يلمّح بها أو يصرّح، بل إنني كنتُ أغبطه حيال إمكانيته بالإحساس بشيءٍ ما، وقدرته الهائلة على المنح.

لذا شرعتُ في كتابة رسالةٍ له كان مفادُها:

زوجي العزيز ماجد:

ما الذي يجعلنا نستمرّ في علاقة كهذه؟ أنا لا أستطيع أن أكون طرفًا في هذه الكذبة التي تُسمّى بالزواج، أنت تدنو منّي

وأنا أستمرّ في الهرب، إنها علاقة بائسة، وأنت تعلمُ كما أعلم أن الرابط الوحيد الذي جمَعنا لعامٍ ونصف العام مات، إننا شركاء في التعاسة، رغمَ محاولاتي المتعدّدة إقناعَ ذاتي بأن هذه هي العلاقة المثالية، فكما هو متعارفٌ عليه أن أي علاقة زواجٍ تقع خارج نطاق الضرب والعُنف فهي علاقةٌ صالحة تطمح لها جميع النساء، لقد قضيتُ ليالِيَ طويلةً بمفردي وسط حالاتٍ من الهلع والهلاوس والاضطراب، وشعرتُ طوال تلك الفترة بأنني المذنبة الوحيدة والمتسبّبة الأولى في مقتل يزن، وعلّلتُ سهراتك وغيابك عن المنزل الممتدّ لأيام ثم لأسابيع، أنه طريقةٌ من طرُقك في تفريغ غضبك أو حزنك جرّاء ما حدث، ثمّ أصبحتُ أتخيل يزَن، بل وأتحدّث إليه في كثيرٍ من الأحيان وأنا أحضّر له أطباقًا من السيريلاك، وأُفسّر بقاءها بانعدام شهيّته، ثمّ أحتفظ بها في الثلاجة للأيام القادمة، وامتلأت أدراجُ الثلاجة بالمزيد والمزيد من أطباق السيريلاك، ليلة أمس منحتُ قُبلتي له، كان يبدو في غاية الوداعة، لقد بذلنا ما في وسعنا لرتق علاقةٍ مثقوبةٍ في الأصل، إننا متورّطان، محكومان في هذا القيد، وأنا أريد أن أمنحك حق التحرّر، تزوّج يا ماجد، ارتبط بامرأةٍ أخرى، أعدك أنني سأبرّر ذلك بإهمالي للمنزل، وجسدي المترهّل ووجهي الشاحب، فلننفصل يا ماجد.

كتبتُ الرسالة بخطي المُثير للشفقة ثم صعدتُ إلى مُلحق فاطمة وأنا أحمل دفتر مذكراتي، كانت تعرف سلفًا أني فقدت كل شعورٍ لي بالحياة، وأن المرأة الواقفة أمامها ما هي إلا بقايا زهراء التي عهدتها، لذلك تفهمت سبب كتابتي للرسالة، لم تسدِ لي أي نصيحة بل اكتفت بالصمت، أصرّت على مبيتي

لديها ووجدتها فرصة لأريها ما كنت أكتبه، خصوصًا وأنها قارئة نهمة.

كان رف مكتبتها متكدسًا بالكتب، معظمها روايات، والقليل من الكتب في الفلسفة والعلوم، أشغلتُ نفسي بالقراءة خلال الفترة التي تذهب فيها فاطمة إلى عملها في الصالون، وفي الصباح الباكر كنت أغمر الغرف بأشعة الشمس الدافئة، وأشعر بنوعٍ خاص من السعادة ذلك الذي يجعلك تدرك حقيقة اليوم الجديد، ويمنحك الأمل رغمًا عن يأسك، وحين ينهمر المطر أخرج لترتطم قطراته بي، في داخلي صوتٌ يخبرني بأنني سأتحرر.

بعد ثلاثة أيام من مبيتي لدى فاطمة، وجدت رسالة من ماجد على هاتفي، كتب فيها: «قابليني هنا» وأرسل رابط موقع مقهى اعتدنا على زيارته بداية كل شهر، ارتديت عباءتي وخرجت دون أن أُعلِم فاطمة بالأمر، كانت حينها منهمكة في عملها وعلى أية حال كان القرار قد اتُّخِذ، ما زلت عاجزة عن فهم مدى تأثير ماجد عليّ حتى في أوقات هربي منه أجدني أرجع إليه كلما رغب بي، ربما لأني اعتدت ممارسة دور الدمية، أحتفظ بالابتسامة البلهاء طوال الوقت حتى وإن فقدت ساقيها، أو تناثرت شعراتها على الأرض، كنت سأجلس طواعية بين يديه لأُلبي أوامره!

لهذا كل ما كان عليه أن يفعله هو أن يطلب رؤيتي، وقد نفذت أمره دون بذل أي جهد للتفكير.

حين دخلت إلى المقهى لم أجد صعوبة في البحث عنه،

لقد جلس حول الطاولة التي اعتدناها، كان يسند رأسه بيده، بدا ولأول مرة غارقًا في التفكير للحد الذي اهتزت به قدمه، ابتسمت له وجلستُ على الكرسي المُقابل، سألني إن كنت أرغب في شرب شيء فهززت رأسي، أما هو فقد طلب قهوته المعتادة، إسبريسو دبل شوت، لأول مرة أمعَن النظر في عيني إلى هذا الحد، تنهد تنهيدة تنم عن ارتياح ثم أراح ذراعيه على الطاولة ببطء، قال بصوت هادر:

- زهراء، أعتقد أن رسالتك كانت مجرد لحظة انفعال منك ليس إلّا، أنا وأنتِ خُلقنا بعضنا لبعض.

أقول مجاهدةً أن يبدو صوتي طبيعيًا:

- ماجد.. أنا لا أعلم ما الذي حدث لكني أظن أن الانفصال هو الأفضل لكلينا.

أخرج منديلًا من جيب ثوبه، ومسح قطرات العرق التي على جبينه، ثم قال:

- لكنني أحبك.

قالها وعيناه تبرقان كعيني طفل، ودون إدراكٍ مني شعرت بالوهن، ورغم كل شيء استبد بي الحنين، قاطعنا الجرسون بكوب القهوة الذي وضعه على الطاولة، أقلب الأمر في ذهني وأتجاهل نبضات قلبي المتسارعة وأرد:

- علاقتنا تشبه كل شيء إلا الحب يا ماجد.

ارتشف قهوته وأعاد الكوب بحرص على الطاولة، شبك

أصابع يده الممتدة على الطاولة ثم قال:

- لكنها علاقة مبنية على الثقة، لا أحد يخفي شيئًا على الآخر.

أتنهد ببطء، أسند ظهري إلى الكرسي وأبحث في رأسي عن كلمات مناسبة ولا أجد، لا شيء منها سيبدو رقيقًا على النحو الذي أريده، لكنني على كل حال أنطق بها دون تردد:

- أرجو أن تفهم قراري، أنا لم أنفصل عنك لأجل هفواتك، فأنا ببساطة لا أهتم لأمرك، جلُّ ما كنت أكترث له هو ابني يزن، ليس للأمر علاقة بمرحلة اكتئاب سأمر من خلالها وأعود بعدها زهراء التي عهدتها، نحن لم نكن مناسبين بعضنا لبعض هذا كل ما في الأمر، أدرك أن قرارًا كهذا جاء متأخرًا وقد أخطأت في تأجيله على أمل أن أُحبك، عليك أن تحترم قراري مهما كان.

غاص في كرسيه مُغمضًا عينيه، عض بشدة على شفاهه مُمسكًا رأسه بكلتا يديه، قال بصوت يرتعش انفعالًا:

- زهراء، أنا أريدك، أحتاجك، سأصبح أفضل مما تتخيلين، أرجوكِ لا تذهبي.

تبددت وتلاشت جميع الأفكار في رأسي، أشعر أن أنفاسي تضيق، فأحمل حقيبة يدي من على الطاولة وأخرج.

طلبت سيارة لتقلني، وحين وصلت كانت فاطمة في البيت، سألتني بقلق:

- زهراء، ماذا بك؟

جلستُ على الأريكة وبكيت، لم يكن لدي ما أقوله، لأول مرةٍ أخرج دون أن ألتفت للوراء.

(37)

تدرك متأخرًا أنك كنت تبرر للآخرين أخطاءهم وتضع اللوم كله على كاهلك، الأمر لا علاقة له بسذاجتك، إنه الخوف من أن تبدو مثيرًا للشفقة أمام نفسك.

كانت تنام فاطمة على السرير الذي يتسع لفرد واحد، أما أنا فقد استلقيت على فراشٍ نحيل على الأرض، ورغم إصرار فاطمة أن نتبادل الأدوار بحيث تنام هي على الأرض، كنت أرفض ذلك بشدة، لمدة أسبوع كنت أكنس المكان بحرص، ألمع أسطح الطاولات، أسقي النباتات وأتخلص من أوراقها الصفراء، ومن حين لآخر أنظف السطح خصوصًا إن مرت موجة غبار، لا أعلم كم من الوقت كنت أخطط لقضائه في الملحق لكنه لم يكن طويلًا، لم أكن أرغب بخلق مشكلات لفاطمة مع ماجد، فلو اكتشف الأمر لن يتوقف عن الصعود للسطح، هذا ما قاله في كل رسائله، كتب لي أكثر من مرة أنه سيظل يحبني ويبحث عني، ومن الجيد أني تلقيت حينها مكالمة من والدي يخبرني فيها بأنه علم بالأمر عن طريق ماجد وأنه سيأخذني إلى البيت، وعلى الرغم من عدم ذهابي للبيت بسبب حادثة نورة إلا أنه لم يكن لديّ خيارٌ آخر.

تركت مُلاحظة صغيرة على الثلاجة: «فاطمة، شكرًا على كل شيء».

نقف عند إشارة حمراء، يسألني والدي بصوتٍ حيادي:

- لماذا لم تخبريني؟

أجبت بعد أن ابتلعت ريقي:

- لم أكن واثقة من قراري بعد.

يمرر يده على ذقنه ثم يقول:

- لقد اتخذتِه وكنتِ واثقة لكنك ظننتِ أنني سأتخلى عنكِ أيضًا، أمال رأسه إلى جهتي ثم سأل وهو يمعن النظر إلي:

- أليس كذلك؟

أشرت إلى الإشارة الخضراء وهي تضيء، فَهِم تمنعي من الإجابة واندفع هادرًا أمام شاحنة نقل.

وصلنا للمنزل، كان يبدو كما هو، محاطًا بالصمت والسكون، ولجتُ لغرفتي، كانت فتحة النافذة كبيرة بما يكفي ليدخل الغبار منها، لذا كان سريري مكسوًّا بالأتربة، مسبحةُ أبي منفرطةُ الحبّات مشتّتة على الأرضية، لا شكّ في أنه دخل إلى هنا كثيرًا، وقنّينةٌ زجاجيةٌ فارغة من البيرة على الطاولة، أما أوراق الجرائد فكانت مكوّمةً في الأركان، كانت سليمة، مكدّسةً بعناية بعضها فوق بعض، فتحتُها واحدةً تلو الأخرى، تفحّصتُ كل شيء فيها، الوقائع، التواريخ، وبينما كنتُ أقلّب وجدْت في منتصف إحدى جرائد الأسبوع الماضي إعلانًا باللون الأحمر بخطٍّ عريض كُتب فيه: «إحدى وسبعون مدرسة للمنازل في الرياض تبدأ بالقبول»، شدّني العنوان لوهلة، أكملتُ القراءة، كانت الشروط في غاية الوضوح والبساطة، وانتهى الإعلان بتاريخ وموعد التسجيل، حيثُ كان اليوم الخامس من هذا الأسبوع هو اليوم الأخير، طويتُ الصحيفة ووضعتُها جانبًا،

نفضتُ الغبار من على سريري، ورحتُ أُحادث نفسي: «افعليها لمرةٍ واحدة يا زهراء، ما زال الأسبوع في أوّله، هناك متّسعٌ من الوقت»، لقد خمّنتُ أنها قد تكون رسالةً من الله أو إشارة، إن احتمالية حدوث شيءٍ ما دون سببٍ في هذا الكون ضئيلة، بل وقد تكاد تنعدم.

تسلّلت أشعة الشمس من النافذة، وتلألأت خلال قنينة البيرة على الطاولة، استيقظتُ من السرير وفتحتُ النافذة، كان الهواء الداخل إلى الغرفة هادئًا نسبيًّا مقارنةً بالأجواء الباردة في الخارج، تخلّل ضوء الشمس خصلات شعري الحمراء فأصبح متوهّجًا، عدتُ إلى السرير، مددتُ يدي أسفل الوسادة وجذبتُ هاتفي، وجدتُ رسالةً من ماجد كان مفادُها:

- أخبرني عمّي سالم بإصرارك على قرار الانفصال، أعتقد أننا وصلنا الآن لخطّ النهاية، الله وحده يعلم كم حاولتُ من أجل المحافظة على هذه العلاقة، ورقةُ الطلاق ستصلك خلال هذا الأسبوع.

حملقتُ في شاشة الهاتف مشدوهة وأنا أُعيد قراءة الرسالة لأكثر من أربع مرّات، وعلى الرغم من يقيني بصحّة هذا القرار شعرتُ بانقباضٍ في صدري، رحتُ أتنفّسُ بعمقٍ بصعوبةٍ بالغة، وأبذل جهدًا كبيرًا بين كُل حركة شهيقٍ وزفير، وأخذَت نبضاتُ ألمٍ تدقُّ في عنقي، ما زلتُ أجهل ما يحدث، لا يُمكن أن أسمّيه حُزنًا، أنا لستُ سعيدةً وحسب، أجبتُ على الرسالة:

- لقد تجاوزنا خطّ النهاية منذ زمنٍ طويل يا ماجد، إن هذا القرار يصبّ في مصلحة كلينا.

غسلتُ وجهي ثمّ توجّهتُ للمطبخ، لم أتمكّن من الوقوف على قدمي شعرتُ بالدوار، جلستُ قليلًا، ثم أعددتُ فطورًا بسيطًا تناولته بلا شهيّةٍ حقيقيّة، وفيمَا كنتُ أضع الأطباق في المغسلة اتّصلت فاطمة وأخبرتني بقدومها للتحدّث معي، استيقظ والدي، ألقى التحيّة عليّ ثم غادر لعمله.

كنستُ المكان، ألقيتُ كل أعقاب السجائر، نظّفتُ حوافّ النوافذ بعنايةٍ من الغبار، ثمّ صببتُ عصير برتقالٍ في كؤوس زجاجية، فإذا بفاطمة تنقر الجرس، فتحتُ الباب ورحّبت بها للدخول، جلسنا على الأريكة، ارتسَمت على وجهها ابتسامةٌ مشرقة تنمّ عن حماسةٍ بالغة ثمّ أخرجت من حقيبتها الجلديّة أوراقًا وضعتها على الطاولة، وأردفَت قائلة:

- زهراء، عليك الإمضاء في هذه الخانة

رفعتُ حاجبي بحيرةٍ وتساءَلت:

- ما هذا يا فاطمة؟

أجابت بنبرةٍ مُبتهجة:

- زهراء، أتذكرين النصوص التي أطلعتني عليها؟ فكّرتُ في الأمر، إنها تستحقّ فرصةً لرؤية النور والوصول للعالم، لذا تواصلتُ مع دار نشرٍ وبعثتُ نصوصك لهم، إن هذه الأوراق هي عقدُ توقيع الكتاب، وصاحب الدار لا يزال قيد الدهشة التي تسبّبت بها كلماتك ويصرّ على تبنّي موهبتك، حتّى إنه أخبرني في رسالةٍ عن طريق الإيميل أنه لم يتمكّن من تصديق أنك لم تُكملي دراستك.

ناولتُها كوب العصير ثمّ قُلت:

- فاطمة، أعتقد أنها فرصةٌ جيّدة لأخبرك أنني أودّ إكمال دراستي، البارحة وجدتُ إعلانًا عن إمكانية إكمال الدراسة لمَن توقّفوا عنها، لكنّني لستُ واثقةً بشأن ما قاله صاحب دار النشر لك، لا أعلمُ حقًّا إن كنتُ مؤهّلةً لإصدار كتابٍ الآن، أعتقد أننا سنقفز بخطواتنا، وأنا أحبّذ التريّث في أمرٍ كهذا.

ارتشفَت العصير وقالت:

- زهراء، أنتِ تكتبين بأسلوبٍ مختلف لَم يحدُث وأن قرأت مثله على الإطلاق، لا أقول ذلك بدافع المجاملة، لكن عليك الإيمان بذاتك، خذي وقتك في التفكير، وأخبريني عن قرارك النهائي، سأكون في انتظارك، عليّ الذهاب الآن.

احتضنتُها بقوّةٍ ثمّ ودعتها، أخرجتُ علبة حليبٍ من الثلاجة وسكبتها على رقائق «الكورن فليكس»، غمستُ الملعقة وفيمَا كنتُ أقلّب الرقائق رحتُ أستذكر مقالًا كنتُ قد قرأته، كان قد كُتب فيه عنوانٌ بالخط الأسود العريض «تحويل الأُسود إلى جراء!»، كان يتحدّث عن كيفية تحويل الأُسود لجراء، إنه لا يقصدُ بذلك تغيير جيناتهم الأساسية إنما تحويل أرواحهم وذلك بحبسهم لسنين طويلة في قفصٍ لا تتجاوز مساحتُه الأربعة أمتار، فقدَت الأسودُ شيئًا فشيئًا دوافعها وتبدّدت قدراتها، والغريب في الأمر أنهم حين أطلقوا سراحهم لم يهجُموا على الزوّار، ليسَ لخوفهم منهم، بل لأنهم نسوا كيفَ يدافعون عن أنفسهم.

إنّ ما يربكنا تجاه بعض القرارات لا يقتصر على ماهيّتها، أو مدى الصواب أو الخطأ في اتّخاذها، إنّما الأمر يكمُن في آخر مرةٍ أتيحَت لك بها فرصةٌ لاتّخاذ القرار، وعلى عكس الأسد الذي فقد شراسته لأنه قد مارسها في الغابة، فأنا لَم أفقد قدرتي على اتّخاذ القرار لأنني لم أملك يومًا إمكانية فعل ذلك، ترددتُ كثيرًا عند طلب الانفصال وكتابة تلك الرسالة، وشعرتُ بوخزةٍ في جلدي حين أخبرني ماجد بشأن الطلاق، حين لا تُتاح لك فرصةٌ لمعرفة الطّرق المعوجّة من الطّرق المستقيمة، ستمضي حياتك في حوادث لا نهاية لها، لم أعُد أكترثُ لآراء الآخرين حول حالتي الاجتماعية أو النفسية، أعتقد أنه نوعٌ من النّضج الذي نصل إليه بعد أن نفقد الكثير.

قاطعني صوتُ والدي الذي مسح على وجهه:

- انظري، لقد حلقت ذقني وصارت بشرتي ناعمة كالأطفال.

علقتُ ضاحكة:

- كنت تبدو أجمل.

قال وهو يحك رأسه:

- حسنًا، كان الأمر يستحق التجربة.

سحب كرسيًا أمام طاولة الطعام الصغيرة في منتصف المطبخ، جلس ووضع ساقًا فوق الأخرى وتوجهت أنظاره نحوي وأكمَل:

- لطالما ظننتُ أنك تشبهين والدتك، لكنك مُختلفة

يا زهراء، لم تعودِي ابنتي الصغيرة، أنتِ الآن امرأة قوية وناضجة.

اختلجت ملامحي وتهدج وجهي، قلت بنبرة حانية:

- ما زلتُ ابنتك.

خرجتُ من المطبخ بزبدية الكورن فليكس، جلستُ متربعة على سريري، كانت أصابع يدي اليمنى تُحرك الملعقة، عاصفة غبار تعصف في الخارج، أنهض من السرير وأتجه للنافذة ولأول مرة لم تخالجني الرغبة في النظر للأعلى، بل عوضًا عن ذلك حدقتُ بأرضية الفناء الخارجي لمنزلنا، تذكرتُ كم لعبنا أنا ونورة هنا «الحجلة»، شدتني النباتات التي خرجت من شق كبير في مربعات الفناء، لم تكن تهتز رغم قوة العاصفة كما فعلت أغصان الأشجار التي تدلت على سور المنزل، أربكني المنظر، وفي غمرة ذلك المشهد، شعرتُ بقوتي، فبعد كل تلك السنين التي عبرت من خلالها أنفاقًا مسدودة، انتشلتُ نفسي من العتمة وخرجت، لم ينتزعوا مني شيئًا..

- تمت -

الرياض

١٥ أكتوبر ٢٠١٨- ٢٧ نوفمبر ٢٠١٩

نبتة الرصيف

رواية

أتذكرين كيف كنّا نرسم على الرصيف مربعات بالطبشور ثم نتناوبنا للقفز عليها كي نتبع حجرة صغيرة جيئة وذهابًا، دون أن نكترث لأقدامنا وهي تطأ النباتات العشوائية التي خرجت من شقوق الإسمنت؟ ربما في حياة أخرى، كنا نباتات رصيف مخلوقةً للتستر على كل الكوارث، وعقد هُدنٍ مع العالم، نباتات لا تقتلها الأعاصير، ولا الأقدام التي تدعس رأسها، وكلما همّوا لاقتلاعها نَمتْ متجاوزةً الشقوق الضيقة، وكأنه الفعل الوحيد الذي وُلدت لأجله.

وجدان حسين و وئام حسين

eva_735 dany_735

إصدار سابق

لوحة الغلاف: فاطمة سعود
@its.fo1

ADAB BOOK

ضياء
t.me/twinkling4